7me Année No. 310

Lundi - 12 - 6 - 1939

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع البدولى رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

السنة السابعة « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٤ ربيع الآخر سنة ١٣٥٨ — الموافق ١٢ يونيه سنة ١٩٣٩ » العـــدد ٣١٠

الفهـــــرس

بمناسبة تبرع اللورد نفيلد نسأل :

هل لأغنيائنا وطن ؟!

من أنباء البرق الأخيرة أن اللورد نفيلد صاحبَ مصانع سيارات (موريس) الإنجليزية قد تبرع للدفاع الوطنى البريطانى بمليون ونصف من الجنيهات ، ووضع مصانعه الكبرى تحت تصرف وزارة الدفاع ، فبلغت بذلك جملة هباته للوطن فى مدى عشر سنوات خمسة عشر مليوناً ونصفاً من الجنيهات على رواية الصنداى إكسبرس ! فإذا قرأت هذا وتذكرت ما تبرع به زخاروف وأفيروف و كوتسيكا وأنطونيادس للجيش اليونانى وهم من رجال الأموال والأعمال فى مصر ، لا يسعك إلا أن تسأل كما أسأل : هل لأغنيائنا وطن ؟

الواقع الذى لا مراء فيه أنْ ليس لأغنيائنا وطن . إنما لهم قصور لإتلاف النعمة ، ومزارع لعصر الفلاح ، وبِرَك لصيد البط ، وميادين لسباق الخيل ، وأندية لقتل الوقت ، ومنازه لإظهار الأُبهة . وما عدا ذلك من أرض الوطن ومعنى الوطن فهم لا يعرفونه ولا يفقهونه !

هل سمعت أن غنياً من الأغنياء أو أميراً من الأمراء قال إن له وطناً فتبرع له بطائرة فى الجيش ، أو بجائزة فى المعارف ، أو بكرسى فى الجامعة ، أو بمستشفى فى الصحة ، أو بملجأ فى الأوقاف ؟

لا تقل فى تعليل هذه الفردية الشحيحة : إن أغنياءنا جهلاء العقل ، وأمراءنا غرباء العاطفة ؛ فإن الوطنية عصبية طبيعية تقتضيها سنة الحياة ، فتكون فى رجل الفطرة تعصباً للأسرة ، وفى رجل البداوة تعصباً للقبيلة ، وفى رجل الحضارة تعصباً للأمة ، وفى رجل الإنسانية تعصباً للعالم

ولئن سألتنى عن تعليل ضعف الوطنية فى هؤلاء الناس لأقولن لك إنى عنه عاجز ؛ فإنهم لا يزالون يشعرون بها شعور الفطرة الضيقة المحدودة . ومن الصعب على العقل أن يتصور أن أصحاب السمو وأصحاب المجد وأصحاب السعادة لا يجدون فى أنفسهم من الحب لمصر الحبيبة الخصيبة ، ما يجده الإنسان الفطرى للغابة السليبة والبادية الجديبة !

***

يكاد النيل يعتقد أن أكثر الأجانب الذين يعيشون فيه ، هم خير له من أكثر الأغنياء الذين يعيشون عليه ! لأن أولئك يعاملونه معاملة الراعى الذى يحلب ويرعى ، وهؤلاء يعاملونه معاملة العَلَق الذى يمتص ويهمل . فأينما رأى التجارة والعمارة والإنتاج رأى ضيوفه ، وحيثما رأى الإسراف والإتلاف والتبطل رأى أهله!

ليتنى أدرى ماذا يقول الغنى الأصيل إذا نافره الأجنبى الدخيل أمام قدس الوطن ؟ أيقول له : هذه رءوس أموالى تنشئ الشركات وتقيم المصانع وتنمى الثروة ؟ أم يقول له : هذه (مشروعات) أعمالى تُقر الأمن وتحيى البلاد وتقتل البطالة ؟ أم يقول له : هذه ثمار إفضالى تعزز الدفاع وتشجع الإبداع وتنشر الثقافة ؟ الله أعلم يومئذ أيهما يقول ذلك وغير ذلك ؛ وأيهما يقف ناكس الرأس خاشع الطرف عَيِىَّ اللسان ، لا يجرى على باله إلا أنماط الثياب وسلائل الكلاب وفصائل الخيل وطُرُز السيارات وأندية القمار وحسان هوليود!

يظهر أن التفدية والتضحية والخدمة العامة إنما تكون أثراً لقوة الروح وصحة الخلق ، فإن أول من تطوع للجهاد شباب الأمة ، وأول من تبرع للدفاع رجال الدين . فالحيلة فى أغنيائنا إذن هى حيلة الله . هو وحده الذى يملك أن يحيل فى النفوس عبادة المال عبادةً للوطن ، ويجعل فى القلوب محبة النفس محبةً للناس

***

يا أغنياءنا، إنا نريد أن نحبكم فساعدونا على خلق هذا الحب .

إن ديننا ينهانا أن ننفس عليكم نعمة الله ، وإن وطننا يمنعنا أن نضن عليكم بأخوة الوطن ؛ ولكن العقيدة والوطنية اللتين تحببانكم إلينا ، هما كذلك اللتان تغضباننا عليكم ! لأن الأمة تريد أن تقوى وفى نفوسكم قوتها ، وتبغى أن تعتز وفى رءوسكم نخوتها ، وتحاول أن تدافع وفى أيديكم ثروتها ، فحرمتموها كل ذلك ووضعتموه فى غير موضعه ، وأضعتموه فى غير سبيله ؛ ثم مكنتم للجهل والفقر والمرض أن تدهمها من كل جانب ، فقعد القوى لجهله عن السعى ، وفتر العالم لفقره عن البحث ، وعجز الضعيف لمرضه عن الإنتاج

***

يا أغنياءنا ـ والناس أجمعون يعرفون من أعنى ـ لقد جربتم بذل المال فى اللهو ، وقتل العمر فى العبث ، وفقد الصحة فى المجون ، فهل كسبتم من وراء ذلك مجداً أو وجدتم فى عواقبه سعادة ؟ جربوا ولو مرةً واحدة على سبيل التسلية أن تمسحوا دمعة على خد حزين ، أو تنفسوا كربة عن قلب بائس، أو تسهلوا طلب العلم لفقير ، أو تمهدوا سبيل العمل لمتعطل ، أو تشاركوا أبناء الشعب فى منفعة عامة ؛ ثم انظروا بعد ذلك كيف يشيع فى صدوركم الرخاء ، ويرتفع بقلوبكم الإخاء ، وتنعم نفوسكم فى الحياتين بين عاجل المجد وآجل الخلود . ثم وازنوا بين متعة الجسم ولذة الروح، تجدوا أن الأولى تنقضى بالملل والعلل والجريمة، والأخرى تدوم بدوام الروح فى الأرض وتخلد بخلودها فى السماء

***

يا أغنياءنا ـ والله هو الغنى الحميد ـ لقد بح الصوت وحفى القلم وأنتم فى نشوة البطر وغفوة النعيم لا تسمعون ولا تقرأون ! فهل تظنون أننا بما نقول ونكتب نريد أن نخرجكم عن متاعكم، أو نحولكم عن طباعكم ؟ لا يا سادتنا ! إن ذلك عمل الله وحده ؛ أما عملنا فأن نذكركم كلما نسيتم أن لكم مواهب تهملونها وللوطن فى استغلالها نصيب، وأن لديكم أموالاً تبذرونها ولله فى ريعها حق؛ وأن ننبهكم كلما غفلتم إلى أن هزل الحياة لا ينفع فى جد الموت ، وأن ملك الدنيا لا يغنى عن ملك الآخرة !

احمد حسن الزيات

بقية من حديث الايمان (*)

النبوة ـ الوحى ـ المعجزة

للأستاذ عبد المنعم خلاف

كتب إلىّ كاتب فاضل من بيروت ، لم يتكرم بذكر اسمه كاملاً ، يستعديني على مقال لدكتور فاضل نشر بمجلة « الأمالى » عنوانه « المعجزة » فسرها فيه تفسير الرافضين الاعتراف بالنبوة بمعناها عند المؤمنين .

وأنا لا أحب الجدل العلنى فى الصحف ، ولا أرتاح إلى نتائجه على النفس والحق وخصوصاً فى المسائل الشائكة التى يجب أن تمحص فى خفاء وهدوء يوحيان عدم التعصب للرأى ، وحب الغلبة أمام الجمهور . ولذلك لم أرد أن أناقش ذلك المقال مناقشة حرفية لأن الألفاظ عالم فظيع غير مضبوط الحدود ، وإنما أردت أن ألقى خواطرى حول هذا الموضوع الخطير ، وفيها يستبين رأيى وردى الضمنى على ما ورد بالمقال . وأرجو أن يكون فيما كتبت إرضاء « للعقل المؤمن والقلب العاقل » الذى كاتبنى من بيروت .

***

هل يقنع ناظر باحث فى حياة الإنسان العقلية والروحية الأولى أنه يجوز أن يترك الله الإنسان من غير أن يتصل به ويرشده ، ويبين له بعض ما خفى عليه وخصوصاً إذا كان هذا الخفاء حول أهم غاية فى الحياة العقلية والروحية ؟

هل يجوز أن يستمر الكون كله صامتاً أمام الإنسان لا يكلمه فيه أحد بكلمة غير إنسانية ؟

أيمر كل الناس هكذا على الدنيا سائرين إلى القبور وأبواب الغاية المجهولة من غير أن يسمعوا حديثاً إلهياً عما وراء الحياة ؟

هل يجوز عقلياً ووجدانياً أن يحتجب ربنا عنا من أول رجل فينا إلى آخر رجل هذا الاحتجاب القاتل ؟!

أيمكن أن يكون هذا من إله نرى رحمته وسعت كل شىء ؟

أيكون أوجدنا لنثبته بمنطق عقولنا فيقتلنا هو بشوق قلوبنا إليه شوقاً لا أمل وراءه ؟

أكان من الممكن أن يستقل عقل الإنسان فى طفولته المنحطة بالاهتداء إلى الحق الفاصل فى قضايا الوجود وما بعد الطبيعة ؟

ماذا يغنى العقل وحده وماذا يرشد إزاء هذه الألغاز والمعميات التى رآها الإنسان فى دور طفولته ؟ إنه لايزال غير مغن ولا نافع عند كثير من الناس حتى فى زمن العلم والسيطرة على الطبيعة فكيف يغنى فى زمن الكهوف والأحراج والغابات ؟

كيف يغنى فى زمن الجهل المطلق بالنفس وبالطبيعة وفى زمن عبادة الأحجار والأبقار والثعابين والجعلان والخنفسان ؟

وماذا كان العقل فى تلك الأزمان ؟ إنه لم يكن سوى انطباعات بسيطة من تجارب الحياة المحدودة التى كان يحياها الإنسان ، فكيف يقدر أن يستقل بأمر البت فى أمر الإلهية وصفاتها وكمالاتها ؟

إن الطفل لا يدرك فى أول أمره من أمه غير ثديها وهى تلقمه إياه ... ثم ينكشف له جسمها ومعناها عضواً عضواً وشأناً شأناً حتى يدركها كاملة ... ولو تركته منذ ولادته لمات جوعاً ولذهب وجوده ولم يدركها . وكذلك الإلهية مع الإنسان ، ولله المثل الأعلى .

هل يمكن أن ينشأ طفل كامل من غير أم أو من فى معناها تقول له قولها المعروف وترعاه حتى يصل إلى سن الرشد فيستطيع أن يستقل بأمره بنفسه ؟

أنا لا أستطيع أن أتصور الإنسان الذى هو أكرم ما فى الأرض يعيش هكذا وحده وخصوصاً فى عصور طفولته من غير أن يقول له قائل من وراء الغيب كلمة التوجيه والتسديد

ولو كنا نرى نوعاً آخر محترماً يعمر الأرض ويتولى الخلافة عليها ويسخرها لقلنا : لعل هذا هو المقصود بالخلق ونحن نعيش على الهامش ... ولكننا لم نر سوانا خليفة يصح أن يكون مقصوداً بالخلق ... فكيف يقصد وجودنا الخالق ثم يتركنا من البدء إلى النهاية من غير كلمة !

كلا ! لن يثبت العقل على رأى ثابت فى « الله » إلا إذا سمع صوتاً منه ... وإلا فمن الحكم بين العقول المختلفة ؟

كلا ! لن يؤمن الإنسان بأنه شىء ذو خطر فى الوجود إلا إذا قيل له ذلك من غير عالمه العقل المستقل ...

كلا ! لن يصبر الإنسان على احتمال الحياة بلذاتها وآلامها من غير أن يسمع من يقول له : « حىّ » ، واعمل ، واصبر ...

الإنسان ! ما الإنسان ؟ إنه كل شىء فى الأرض أمام نفسه

(*) أنظر الأعداد ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ من الرسالة

وأمام الوجود الظاهر فكيف يهمل ويترك سدى من غير نداء خفي بعيد ؟

إن الإنسان نفسه كبير الرحمة في بعض أفراده الذين لا يستطيعون سماع استغاثة حي ذي كبد رطبة دون أن يبكوا رحمة له ، ويقولوا له : لبيك لبيك ... فما بال الرحمن الذي ثبتت رحمته ثبوتاً محسوساً تنظر إليه عقول عباده وقلوب الباكين الدائمي البكاء له السائرين في ظلام الحياة وآلامها ، اليقظين لكل فكر وحس وحركة في الوجود ، الحاملين آلامهم على ظهورهم وأرواحهم على كفوفهم ، الحائرين بين مذاهب الأفكار واتجاهات الطباع واختلافات الميول يقولون له : « رب الحياة ! قل لنا كلمة واحدة : ما هو الحق ؟ قل لنا بصوت منك أو بلمحة أو بحجة قاطعة حتى نجزم به جزم الحس مع جزم العقل ...

إن جزم العقل وحده في هذه المسألة الكبرى لا يدخل الطمأنينة الكاملة التي لا بد منها في حياة الإيمان يا مولانا ! فاكشف لنا الحجاب ، واهتك الأستار ، وأرنا ما وراء هذه الكثافات والأجرام والأجسام والأحجام ... » أقول ما بال الرحمن لا يسمع دعاء ممثلي الإنسانية الحائرة المقتولة بالشوق والشك المصروفة بالإفك ، فيقول لها بين فترة وأخرى كلمة فاصلة تشير لها بها إلى الطريق ما دامت هي القطيع المقصود ، وما دام الاهتداء إلى الله هو المعنى الذي يصح أن يكون غاية الله من خلق الإنسان ؟

هكذا وقف قلب كل نبي نشأ في حيرة من ضلال قومه قبل أن تتصل به شرارة الوحي ، لا يرى نوراً ولا يسمع شيئاً يقول له : « من هنا الطريق ... »

هكذا وقف كل نبي في الظلمات وبكى ... بكى لكل شيء ... بكى للسماء والأرض والحجر والنجم والحي والميت وكل شيء ... وكل شيء ...

فإذا كان منطق الإنسان الكامل ورحمته يحتمان أن مثل هذا الباحث الحائر الباكي يجب أن يرحم ويخاطب ويغاث من لهفته وخصوصاً إذا احتاجت الظروف لحركة تطهير الأرض من ضلال وفساد ، فأظن ظناً يقرب جداً من العلم أن هذا المنطق وتلك الرحمة يقولان : « لا بد لله أن يتكلم ! » أجل يحكمان على رب الوجود أن يكلم ذلك الرجل الحائر الباكي من عدم الاهتداء إلى حقيقة نفسه وحقيقة الوجود ... ولن يحمل إنسان عبء النبوة والرسالة الفادح إلا إذا سمع هذه الكلمة ... ولن يتحدث باسم رب الوجود ويقول : « أُوحِيَ إِلَيَّ » إلا إذا سمع حديث الله له ... وإلا كان أكبر مجرم ظالم كاذب والكاذب لا يستطيع أن يبني بيتاً كما يقول « كارليل » فلا يستطيع أن يبني أمة ... « وَمَنْ أَظْلَمُ ممن افترى على الله كَذِباً ، أو قال : أوحي إليَّ ولم يوحَ إليه شيء ... »

***

تلك هي النبوة أوقن بها كما أوقن بسنن الطبيعة المطردة وأنتزع حججها من صميم النفس الإنسانية منطقها ووجدانها وأحاسيسها . فكما أومن بأن الشمس يجب أن تظهر للنبات والحيوان لكي تعطيهما وجودها الجسماني أومن بأن الله أظهر للإنسان جانباً من نوره حتى يأخذ وجوده الروحي ، وذلك كان في أول النشأة ودور الطفولة البشرية

إننا الآن نرضى بصمت الطبيعة المطبق اتكالاً على أن الله كلم بعض أفراد النوع في الزمان القديم . وأنا شخصياً أظن أنني ما كنت لأومن بفكرة ثابتة عن الله لو لم أوقن بأن الله كلم محمداً ومن حكى عنهم محمد من الأنبياء ... وكأني أحس أن الله كلمني شخصياً حين كلم بعض أفراد نوعي ...

أجل ! كيف أثبت على الإيمان به دائماً ما دام هو لم يأبه لي ولا لنوعي ؟ أمن المعقول أن ينظر الإنسان إلى الله دائماً ولا يبالي هو به ؟

إن الله رحمة ... إن الله محبة ... إن الله كرم ... إن الله جمال ... كما تثبت ذلك صناعته في الخليقة فلا يجوز أن يكون قاسياً متكبراً على الإنسان خليفة الأرض إلى هذا الحد !

إننا الآن في زمن رشد عقلي يلوح لنا أننا نستطيع أن نستقل بعقولنا في الاهتداء إلى الله وإلى الخير . ولكن يجب أن نتذكر حالة النشأة والطفولة التي كنا عليها ... حين كنا نعيش بالأوهام والأحلام ونرى الكون أمامنا كتلة مبهمة ومجموعة ألغاز ومعميات وأحاج ... حين كنا نعبد الحجر والبقر والجعلان والخنفسان ... حين كان العالم مملوءاً أمامنا بالأشباح التي تملأ الهواء والنار والسحاب والبحار . فهل كانت غاية خلق الإنسان متحققة في تلك الدهور والأحقاب بالعقل الإنساني على بساطته ؟ ومادامت غاية خلق الإنسان كما يحتمها العقل هي معرفة الخالق وعبادته فلا بد أن تتحقق دائماً وقصور عقل الإنسان في الماضي ما كان يسمح بتحققها فلا بد أن يتولى الله إرشاده عن طريق الاتصال ببعض أفراده

إن الحركة العقلية المنيفة التي كانت في بلاد الإغريق لم تنقذهم من الوثنية المنحطة . فالعقل وحده لا يؤمن بما يصل إليه ويصنعه هو إلى درجة الطمأنينة التي لا بد منها في منطقة الإيمان، والطبيعة الآرية صارت تبحث عن الله بالعقل المادي وحده فما اهتدت إليه إلا أفراداً قلائل . ومن قرأ صور الإله في أفكار كثير من فلاسفة اليونان من العدد إلى الماء إلى العقول السبعة إلى النار إلى آخر الفروض يرى أن العقل وحده حتى في بلاد اليونان لم يقدم الصورة الكاملة للإله كما قدمتها الروح السامية فقد بحثت عن الله في نفسها ووقفت تبكي له بقلوب أنبيائها وصهرتها الآلام وأضناها الإخلاص له إخلاص الطفل حين يبحث عن أمه ويبكي ، فظهر لها فأيقنت بالحق والخير

وقد نجحت الروح السامية في إنقاذ البشرية من الوثنية وفي إعلاء شأن الإنسان وفي تعميم صورة الكمال الإلهي وفي سيادة الأرض. فلا يمكن بعد ذلك كله أن نقول إن تلك السيادة السامية المبنية على النبوة كانت عفواً وصدفة، ولا يمكن أن تكون حركة العقليين موازية لتلك الحركة الروحية ، وخصوصاً أيام كانت حركة العقل ضئيلة لا تستطيع أن تقيم قوانين وأخلاقاً . فلا بد أن يكون وراء الروح السامية سند من عالم الغيب

لا يمكن أن يستأنف الإنسان عبادة الأحجار والأشجار وغيرها بعد أن وصل إلى التسلط على كثير من قوى الطبيعة وبعد أن زال خوفه من قواها أيام كان يجهل أسرار تركيبها

ولذلك ختم الله الرسالة بمحمد وأعطى الإنسان الطبيعة يسخرها ويتصرف فيها بالتدريج كما يعطي الأب ابنه ماله بعد الرشد يتصرف فيه بعلمه وسلطته

تماماً هو قانون الأبوة مع البنوة فهو اطراد في سنن الكون. والطبيعة كلها متشابهة . النشأة العقلية العامة في الإنسان كالنشأة الجسمانية فيه

لقد استخلص الله خلاصة الحق من تجارب الحياة الإنسانية في جميع الأمم وأسلمها للانسان ووصاه وصيته الأخيرة وقال له : بلغت الرشد فأمامك الطبيعة ، وإلى اللقاء في الدار الثانية التي يحكم بها عقلك وعلمك، فاستعد لتقدم إلى الحساب عما تفعله في النفس والمادة وقواها

أليس هذا هو قانون الطبيعة مع أفراد الحيوان والإنسان ومع أسرهما؟ بلى، وإنه هو نفسه بشكل أوسع بين الشعوب والمجموع الإنساني.

قد يقول قائل: إن الوثنية لا تزال دين عدد هائل جداً من الناس؛ ولا يزال سكان أفريقية الوسطى وجزر المحيط والصين والهند واليابان يدينون بالقوى السحرية وعبادة الحيوان. فأين رشد الإنسان المزعوم؟

ولكن مع تسليمنا بذلك نقول إن التبعة ملقاة على عاتق الأمم المتعبدة بالروح السامية ، وإنه لتقصير فظيع منها أن تترك بعض أفراد الأسرة الإنسانية هكذا ضائعين من الحياة. ولو كان الاستعمار يحمل غاية روحية سامية لجعل همه الأول هدم الوثنية وتعميم فكرة الوحدة الإلهية . وقد وكل الله الشعب الأصغر القاصر إلى الشعب الأكبر الراشد ، كما يحدث من توكيل الأب للابن البكر في الأسرة الواحدة ... فإذا لم يراع الأكبر حسن الرعاية والإرشاد كان اللوم كله منصبًّا عليه . وستعلم الشعوب المتحكمة العاشقة للمادة وحدها كم ستكون تبعتها ثقيلة باهظة ، وجنايتها كبيرة غليظة، بتركها نفوس الزنوج وسكان الجزر النائية في المحيطات وكل الأمم الوثنية من غير حمل لها بالقوة على ترك عبادة الأوثان وعلى سمو الحياة الروحية

لقد صارت الأرض كقطر واحد بفضل الكشوف الجغرافية وأدوات الاتصال العالمية وسرعة الانتقال ، فكان من الواجب أن يتلاقى البشر على معان قريبة في الدين ، ولكن المادية الحالية هي الحائل وهي الشاغل ... وعلى أية حال لن تعمر الوثنية طويلاً بعد الآن

كانت الأمة من الأمم السابقة تحتاج إلى رسول معين يرشدها في حياتها الروحية نظراً للقصور العام ، ولكن ميراث الرسل المتروك والملخص في رسالة محمد يستطيع أن يخرج رسلاً عديدين ينقذون الخاضعين للسحر الأسود والوثنية الصفراء وغيرهما ... ولعلها رسالة مدخرة لأبناء محمد حين يتم نضجهم وكمالهم بعد يقظتهم الثانية هذه . فإنه ليس هناك كتاب دين حارب الوثنية وأبغضها وحطمها وناقشها من جميع وجوهها كما فعل القرآن . وليس هناك أمة أفهمها كتابها أنها منتدبة لحماية عقائد البشر من الوثنية وغوائل الروح كالأمة الإسلامية « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً »

ويمكن لأي فرد الآن أن يعلم من حقائق الدين وحقائق الطبيعة ما كان يختص بعلمه الكهنة والأوصياء في الزمان القديم، ويخيل إلى أن مجهود النبوات كلها كان موجها إلى تفهيم الإنسان

قيمة الطبيعة وإلى شغل عقله بالبحث فيها حتى يهتدى إلى مفاتيح تسخيرها ويبرأ من عبادة ظواهرها وقواها ويعبد بارئها فقط .

وقد نجحت النبوات نجاحاً باهراً فى ذلك وأنقذت الإنسان الذى يسكن الجزء الأهم فى الأرض وجعلته هو صاحب السيادة والسيطرة فيها ، وجعلت الأمم الوثنية خاضعة له ، أو ناظرة إليه وتابعة لخطواته . فلم يعد هناك حاجة إلى بعث رسل مؤيدين مكلمين من السماء لأن مجال الدين صار واضحاً وصار التدين مقرراً بالعلم لأن العلم كشف فى القلب الإنسانى منطقة لا غنى لها عن الدين . والخلاف الآن على الطقوس المختلفة فى الديانات فقط . وسيكون أقرب هذه الأديان إلى الفطرة والسبيل العلمية هو دين الإنسانية القريبة الموحدة [للحديث بقية]

(بغداد — الرستمية) عبد المنعم خلاف

جنـــــاية أحمد أمين

على الأدب العربي

للدكتور زكى مبارك

— ١ —

لصديقنا الأستاذ أحمد أمين مؤلفات جيدة قامت على أساس المنطق والعقل ، وهو من كبار الباحثين فى العصر الحديث . ولكنه على أدبه وفضله لا يجيد إلا حين يصطحب الروية ويطيل الطواف بالموضوع الواحد عاماً أو عامين ، وذلك سر تفوقه فيما نشر من البحوث والتصانيف

ولسنا نظلم هذا الصديق المفضال حين نحكم بأنه لا يصلح لتقييد الخواطر العابرة التى تطوف بالذهن من حين إلى حين ، لأن ذلك لا يتيسر إلا لمن رُزق موهبة أدبية تقيّد شوارد المعانى بلا تعب ولا عناء ، وتضيف المألوف إلى صف الطريف بعذوبة التعبير وقوة الروح

أحمد أمين باحث كبير بلا جدال ، ولكنه ليس بكاتب ولا أديب ، وإن كان من أساتذة الأدب بالجامعة المصرية !

ولم يستطع الأستاذ أحمد أمين على كثرة ما كتب وصنّف أن ينقل القارئ من ضلال إلى هدى ، أو من هدى إلى ضلال ، وإنما كانت مؤلفاته وبحوثه ضرباً من « التقرير » الذى يخاطب الأذهان ويعجز عن مخاطبة العقول والقلوب

وحياة الأستاذ أحمد أمين تؤيد ما نقول : فهو رجل لا يعرف الخلوة إلى الفكر والقلم ، ولا يتسع وقته لدرس ما فى الوجود وما فى الأخلاق من مشكلات ومعضلات ، وإنما يقرأ ويسمع ، ويعلق على ما يقرأ ويسمع ، بدون أن يتغلغل إلى أسرار المجتمع أو سرائر القلوب

وهيام الأستاذ أحمد أمين بالظواهر قد عاد عليه بأجزل النفع من الوجهة الشكلية : فهو رئيس لجنة النشر والترجمة والتأليف ، وهو أستاذ بالجامعة المصرية ، وهو عضو فى كل لجنة تؤلفها وزارة المعارف ، وهو مشرف على بيت المغرب ، وهو مؤلف كتب وناشر مقالات ، وهو صاحب ثروة يدبرها ويشقى فى سبيلها أعنف الشقاء .

وهذا كله مقبول ، ولكن الخطر كل الخطر فى ألا يقنع هذا الرجل بما وُفّق إليه فى حياته الرسمية والمعاشية

الخطر كل الخطر فى أن ينصب هذا الرجل نفسه حاكماً بأمره فى تقرير مصير الآداب العربية ، وهو لم يستطع إلى اليوم أن يقيم الدليل على أنه يتذوق المعانى والأساليب

الخطر كل الخطر فى أن يتوهم الأستاذ أحمد أمين أنه قادر على زعزعة ما أقامته الأيام من الحقائق الأدبية ، الحقائق التى ساد بها العرب فى أزمان طوال ، وكان لها سلطان مهيب فى أقطار الشرق وأقطار الغرب

ولكن ما الذى نقل ذلك الرجل الفاضل من حال إلى أحوال ، وحوّله من الروية إلى الارتجال ؟

ما الذى قضى بأن يثور أحمد أمين على ما خُلق له فيطالع الجمهور بآرائه من يوم إلى يوم وكان يلقاه من عام إلى عام ؟

لقد أصبح الرجل صحفيًّا ، وكان أستاذاً ؛ ولكنه لم يراع أدب الصحافة ، لأن الصحافة تقف عند المشاهدات وهو يهيم بأودية الفروض

ابتدأ هذا الرجل مقالاته فى مجلة الثقافة بتلخيص بعض الكتب الأدبية فكان من الصحفيين الأدباء ، ثم رأيناه يتحول فجأة فيلخص الأدب العربي فى جميع عصوره تلخيصاً يقوم على أساس الخطأ والاعتساف ، ويعوزه تحرير الحجة وتصحيح الدليل

أعلام الأدب

بين أرستوفان ويوريبيدز

للأستاذ دريني خشبة

ظل أرستوفان يدعو قومه إلى السلم وينفرهم من الحرب ، وظل يسخر من القادة المغرورين ويستهزئ بشكل الحكومة وديمقراطية الغوغاء ، فلم يزدد قومه إلا عناداً ، ولم تزدد جيوشهم إلا هزيمة ، ولم تزدد أثينا إلا فساداً وانحلالاً . فلما بح صوته من دعوة السلام والتنديد بنظام الحكم انصرف عنهما آيساً ، وفرغ لأستاذه وعدوه يوريبيدز ، يقصر عليه نشاطه الأدبي ، ويصب عليه جام نقمته ، وما أورثه فشله في دعوة السلام من مرارة وغيظ

وقبل أن نخوض مع أرستوفان في هذه المعركة على نحر المسرح اليوناني لا نرى بداً من التمهل قليلاً لنلخص ملهاتين عظيمتين ألفهما الشاعر الساخر قبل الانقضاض على يوريبيدز ... أما إحداها فمن أمتع ما نظم أرستوفان ، وأما الأخرى فهي أمتع وأعظم ما ألف طول حياته ، إلا إذا كان فيما ضاع من كوميدياته ما هو أعظم منها

ففي سنة ٤١١ ق . م أخرج أرستوفان ملهاته ليسستراتا ، وقد نظمها تنفيراً لقومه من الحرب ، وصيحة مضحكة في سبيل السلام . . . ولا بد أن الأثينيين كانوا أمة من المجانين حين حاول أرستوفان أن يصرفهم عن آلامهم وما تترك الحرب في كل بيت من بيوتهم من مناحة تمزق القلوب وتفتت الكبود وتفجر المدامع ، ليضحكوا ملء أشداقهم من كوميديات مواطنهم المهرج العظيم !!

لله كم كنا نتمنى لو لم يفقد ذلك الجزء الثمين من كتاب الشعر (Poetics) لأرسطو الذي تناول فيه فلسفة الكوميديا لنعرف رأيه في علة ازدهار الأدب الكوميدي في فترة حروب البليبونيز خاصة حتى بلغ أوجه بين أنين الجرحى وعبرات الثكالى وأحزان الموجوعين

يصور أرستوفان في ملهاته لسسترا بطلة حازمة تدعو إلى نبذ الحرب ونشر لواء السلم ، فما تزال بصويحباتها (نساء أثينا) تحضهن على ذلك وتكون منهن حزباً قوياً تنتهي إليه الغلبة في أثينا الديمقراطية ، فإذا احتج الرجال وأخذوا يناوئون حركة النساء اقترحت الزعيمة على توابعها حرمان الرجال من ممارسة (المسألة الزوجية !!) حتى يفيئوا إلى الحق ويرجعوا عن هذه المجزرة التي تودي بأبنائهم وبأنفسهم في غير طائل . . وقد تعمدنا هنا أن نعكس ما أثبته أرستوفان في ملهاته ، فقد قصد أن تكون النساء نساء أسبرطة وهو في الحقيقة لم يعن غير نساء أثينا . . . ثم تنتهي الكوميديا بخضوع رجال أسبرطة ومجيئهم طائعين مختارين يطلبون الصلح من الأثينيين فتضع الحرب أوزارها ويكون السلام على الأرض (!!) وقد كان أرستوفان ماهراً في تلطيف عقدة ملهاته الفاجرة التي لا نحسب أنها كانت تخطر لأديب ببال في سبيل وقف جرب الموره ، تلك الحرب التي استمرت تهلك الحرث والنسل ثلاثين عاماً طوالاً فكادت تكون بسوساً يونانية بل هي كانت شراً من بسوس العرب ... فأي سلاح هو أمضى لوقف الحرب من إضراب النساء عن منح الرجال حق المباشرة الجنسية ! أليست الفكرة فكرة جريئة وإن تكن فاجرة داعرة ؟ لقد كان المسرح اليوناني الكوميدي يجيز ما هو أشنع من اللسستراتا أضعافاً مضاعفة ، وقد كان أرستوفان عفاً في ملهاته هذه إذا قيس بزميليه أمفيس وألكزيس اللذين كانا يحشدان في ملاهيهما ما لا يسمح قانوننا ولا عرفنا ولا أخلاقنا بعرض صورة منه ولا الخوض اليسير فيه .. ومع ذلك فقد كان أرستوفان لبقاً في التضحيك على نسائه وإن كان دائماً في جانبهن ضد الرجال ، وقد زاد في إشاعة الروح الكوميدي فيهن بجعلهن عربيدات لا يعقدن مؤتمراتهن إلا حين تعبث الخمر بهن وتروى مشاشهن جميعاً

فهل يظن أنه سينجو من عواقب ما يصنع ؟

هل يتوهم أن التجني على الأدب العربي سيمر بلا اعتراض ولا تعقيب ؟

إن لهذا الرجل صداقات مع كثير من الأدباء والناقدين ، وهو لذلك يرجو أن يصول ويجول بلا رقيب ولا حسيب

فما رأيه إذا أقنعناه بأن للأدب العربي أنصاراً يغارون عليه أشد الغيرة ، ويقفون لخصومه بالمرصاد ؟

ما رأيه إذا سددنا في وجهه جميع المسالك وقهرناه على الانسحاب من ميدان الدراسات الأدبية ؟

ما رأيه إذا فرضنا عليه أن يعود رجلاً يؤذيه أن يجانب المنطق والعقل ؟

« للحديث شجون » زكي مبارك

أما أبرع كوميدياته وأمتعها على الإطلاق فهي بلا شك (الطير)، وقد ألفها سنة ٤١٤ أي قبل لسستراتا بثلاث سنوات فكانت آية آياته كلها حيث ارتفع بها إلى ذروة الفن الكوميدى وأشاع فيها المرح وجافى بينها وبين الواقع، وبناها على الكذبة الكبرى التي هي أساس الكوميدى اليوناني. وقد قلد فيها سوفوكليس من حيث سرعة العرض ونشاط الأداء والتنقل من مشهد إلى مشهد في خفة وتشوف، كما قلد فيها الشاعر الغنائي الخالد أرفيوس من حيث روعة الأغاني وجمالها وانسجامها وعلوها عن مستوى الغناء الكوميدى الذي كان يقصد به إلى الشعبذة والتهريج لا إلى الفن الخالص الرفيع

استطاع اثنان من أهالي أثينا هما پيثتيروس وإيولپيدز، أن يكتشفا حقيقة عجيبة لم تكن لتدور في روع أحد ولا تخطر يوماً في قلب بشر... استطاعا أن يعرفا ما عرفه الشاعر سوفوكليس من قبل، وهو أن ملك الطير إيپوپس هو نفسه الملك تيريوس ملك تراقيا(١) الذي كان يحكمها في سالف العصر والأوان قبل أن يُسحر إلى هدهد وقبل أن يتربع على عرش الطير مزهواً بتاجه الجميل ومنقاره الطويل وألوانه المتلألئة الحسناء... ولما كان پيثتيروس مواطناً منبوذاً من قومه الأثينيين فقد اعتزم الرحلة إلى مملكة الطير ليجرب فيها حظه غير مستعين بأحد إلا بنفسه وزميله المنفل المطواع إيولپيدز... هذا وقد كان پيثتيروس رجلاً مقداماً مقاحماً قوى الجدل حاضر البرهان نافذ الحجة لا يعييه أن يقنع محدثه بالشيء وضده في وقت معا. وكان يرى الرأى فيصيب به الحقيقة دائماً ولذلك كان قلما يرضيه تصرف الآخرين خصوصاً في شئون الحكم

أما إيپوپس الهدهد ملك الطير، أو تيريوس ملك تراقيا في سالف العصر والأوان، فملك عادل محبوب من رعيته المخلصة له، وهي رعية بُدائية ما تزال تحبو في أول مدارج المدنية، ولذلك فهو دائب على النهوض بها وإصلاح حالها، ولذلك أيضاً يرحب دائماً بكل من يرد عليه من رعايا الدول المتمدينة الأخرى... وقد أكرم مثوى پيثتيروس لهذا السبب، واستطاع پيثتيروس

(١) هكذا في مجموعة كوميديات أرستوفان طبعة دانت ج ١ لمترجمها ج هوكهام فرير وقد خالفه ستويارت وموراى ص ٢٨٦ إذ يذكران أنه كان ملك أثينا لا تراقيا ونحن نلخص من فرير

من برجنا العاجي

كان إبسن يقول: «الرجل القوى هو الفرد المعتزل»

كان إيماني شديداً بهذه الكلمة. وما برحت أرى فيها دستورى الذى لا ينبغى أن أحيد عنه. فأنا كلما انطويت على نفسى واعتصمت ببرجها أعطتنى كل ما أريد من قوة ومنعة. وكلما التمست ذلك عند الناس أو عند أصحاب الجاه والسلطان شعرت أنهم أضعف من أن يستطيعوا لمثلى خيراً أو شراً. فليست قوتى المنشودة فى ألقابهم ولا فى ثرائهم، إنما هى فى شىء ليس فى مقدور أحد أن يمنحنيه غير نفسى. فالدولة لم تستطع ولن تستطيع أن تنقص أو تزيد فى قوة قلمى أو رأيى، ولم تستطع ولن تستطيع أن تخفض أو ترفع من قدرى وقيمتى فى نظر الزمن والتاريخ. وهنا كل متعتى فأنا إذن لا أحتاج إلى الدولة فى شىء، لأنها لا تستطيع أن تمنحنى أو تمنحنى شيئاً ذا أثر فى كيانى الحقيقى

هذا رأى الأستاذ العقاد أيضاً فى كتاباته عن «الدولة والأديب». وقد أشار إلىّ فيها بما يفيد أنى مخالف لرأيه. وهذا غير صحيح. فأنا يوم ذكرت الدولة فى مقام الأدب لم أرد منها تشريف الأدب بحمايتها؛ فالأدب شريف بدونها وهى لا تستطيع له تشريفاً، إنما هو الذى يستطيع إذا أراد أن يشرفها وبنوه بها. إنما أردت من الدولة أن تنظم بوسائلها المادية أسواق الأدب المادية كما تنظم بقية المرافق الحيوية الأخرى حتى يتطهر من السماسرة والمستغلين. إنى أردت من الدولة أن تصون نتاجنا من جشع الطامعين كما تصون مال الأفراد من عدوان اللصوص. فلقد كان كل عجبى أن الدولة لا تعترف بمصالح الأدباء اعترافها بمصالح الأفراد، فهى تتركهم نهباً للناهبين حيث تقوم وتقعد إذا استبد تاجر بسوق الغلال، أو استولى مراب على بعض المال!

توفيق الحكيم

أن يقنعه بوجهة نظره فى تكوين دولة تحت سيطرته بحيث ينضوى تحت لوائها البشر ، وما كادت رعية الطير تسمع بهذا حتى ثارت ثائرتها وهددت الملك بالتمرد وإضرام نار الفتنة، للضغينة القديمة بينها وبين بنى آدم ولعدم ثقتها فيهم من قديم الزمان . وقد همت الطير بالفتنة فعلاً ، لكن بيثتيروس ألقى فيهن خطبة طنانة رنانة ساد بها الموقف وأنقذ بها مشروعه من الفشل

وأنشئت الدولة برياسة ملك الطير ، وأقامت الرعية المتاريس على الطريق إلى مملكة السماء ، فانقطعت السبل بين الآلهة وبين الأرض ، ولم تقو أرباب الأولمب على إخضاع الطير فاضطرت أن ترسل سفارة من نبتيون إله البحار وهرقل الحديدى إله الرياضة وتريبول الإله البربرى الجاهل التمتام التفتاف (!) وقد اضطرت الآلهة إلى إرسال هـذه السفارة بعد قبض الطير على إيرس (قوس قزح) مبعوثة حيرا وجاسوستها حين اجتازت بغير حق المتراس الفاصل بين مملكة الطير وطريق الآلهة إلى السماء ... وقبل أن يصل أعضاء السفارة تنزل الإله بروميثيوس — حامى البشرية ونصير الإنسان — مختالاً تحت مظلة كبيرة بين سمع زيوس كبير الآلهة وبصره ، ليؤيد بيثتيروس بحجته وليمنحه البركة والتوفيق فى مجادلته سفراء السماء ... وقد استطاع بيثتيروس أن يخدع هرقل بأكلة شهية أعدها له فضمه إلى جانبه ، وكان هرقل يسيطر على صاحبه تريبول الجاهل البربرى التفتاف، وبذلك أصبحت الأغلبية فى جانب بيثتيروس ، وغلب نبتيون على أمره ، وعقدت معاهدة بين الفريقين فاز فيها بيثتيروس بأقصى ما كان يصبو إليه من تفوق وسيطرة ، فقد رضى سيد الأولب — زيوس الكبير المتعال ! — أن ينزل طائعاً مختاراً عن صولجان ملك الدنيا (الأرض) إلى الأبد لأيبوس الهدهد ملك الطير كما قبل أن يزوج ابنته الخالدة الفتانة (باسيليا [1]) لبيثتيروس

وفى الكوميديا شخصيات مضحكة أخرى لا يتسع هذا الملخص السريع لعرضها . وأهم ما يلفت النظر تعقيباً على ملهاة الطير هو روح الإلحاد والسخرية بالآلهة الشائعين فيها ، وهو روح عجيب يدلنا على ما بلغته أثينا من الحرية الفكرية والتحلل من ربقة دينها الأسطورى بحيث لم يتحرج أرستوفان من الشعبذة على أرباب الأولمب إلى هذا الحد المضحك.

ثم فرغ أرستوفان لفخر شعراء الدرام ، بل لفخر أثينا القديمة ، يوربيدز العظيم ، فنال منه ما لم ينل منه شىء آخر ، وشعبذ عليه شعبذات أضحكت خصومه حيث ألف فيه ملهاته الفاجرة الشنيعة الـ (Thesmophoriazusae) ، أو محاكمة يوربيدز كما يسميها المتأخرون والاسم مشتق من Thesmophoria (ثسموفوريا) وهو عيد من أعياد اليونان القديمة كانت السيدات يقمنه فى أكتوبر من كل سنة تقديساً لربة الزراعة والمدنية سيرس (أودمتير) ، ولم يكن يسمح للرجال ولا للذكور بوجه عام فى حضوره ... وقد ألفها سنة ٤١١ أى فى نفس السنة التى ألف فيها الليسيستراتا ، ولذلك جاء فيها أثر من سابقتها ...

نمى إلى يوربيدز أن الأثينيات المحتفلات بعيد سيرس فى الـ (ثسموفوريا) سيثرن قضيته معهن لطول ما شن عليهن الغارة فى دراماته ولجرأته على الجنس اللطيف بإبرازه على المسرح ، وتناول ما لم يكن ينبغى تناوله من أسراره أمام الناس . وخوضه فى شئون الحب والعشق والغرام المحرم من غير ما تورع ولا استحياء ولا مراعاة للعرف ، ولا إبقاء على سنن السلف الصالح . وبلغه أيضاً أنهن سيصدرن عليه حكماً صارماً عسى أن يكون له فيه مرتدع ... خاف يوربيدز واشتدت خشيته ووقع فى حيص بيص (!!) ، ولم يدر ماذا يصنع ؛ ثم بدا له أن يستعين بشاعر مخنث (!!) جيل الطلعة مشرق المحيا يمكن أن يتنكر فى زى النساء ، ويذهب إلى الـ (ثسموفوريا) ويختلط بالنساء حتى إذا شرعن فى فحص قضية يوربيدز تولى هو الدفاع عنه بكل ما أوتى من ذلاقة وزشاقة وبيان ... لكن الشاعر أجاثون رفض ما يعرضه عليه يوربيدز من وجوه الإغراء والإغواء فيضرب يوربيدز أخماساً لأسداس ، ثم يبدو له فجأة أن يذهب إلى والد زوجته (حميه) — منسيلوخوس — فيرجوه أن يتنكر هو فى زى امرأة ثم ينطلق إلى مكان الاحتفال فيتولى الدفاع عن زوج ابنته وإلا وقعت الواقعة وحاقت به البلايا ... ويقبل حموه ، ثم يذهب إلى الـ (ثسموفوريا) وما يكاد يتكلم حتى يشك النساء فى أمره ، حتى إذا تضاعف ريبهن هجمن عليه واكتشفن أنه رجل وأنه حمو يوربيدز ... ويسقط فى يد الرجل ، ويهرب منهن لائذاً بالمذبح ، حتى إذا ضيقن عليه الخناق وأوشكن يبطشن به انقض على أحد أطفالهن فاحتمله بكلتا يديه وراح يهددهن بقتل الغلام إذا مسسنه بسوء ... ويختلط حابل النساء بنابلهن ، ثم يكتشفن أن الذى يحمله الرجل ليس غلاماً ،

---

[1] تعني باسيليا المملكة أو الملك

بل هو دن خمر مغطى بثوب ، فيثرن من جديد ويوشكن أن يوقعن به ... وهنا يظهر يوريبيدز نفسه ولكن متنكراً فى أشكال شتى ، فتارة يبدو كأنه منالوس حينما يكتشف أمر زوجته هيلين فى مصر ؛ ثم يبدو فى صورة الفتاة إيخو (الصدى) وهى تساعد الفتاة أندروميدا المصفدة فى حَيْد الجبل ... ويبدو مرة ثالثة فى شكل پرسيوس وهو يفك أصفاد أندروميدا ... ثم يفلح يوريبيدز آخر الأمر فى إطلاق سراح حمئه بعد أن نجح النساء فى تصفيده فى قفص المجرمين ، وذلك باتخاذه صورة قوّادة (هكذا !!) وذهابه مباشرة إلى الضابط الذى عهد إليه بالرجل ليحرسه ... وتأخذ القوادة فى الرقص وهز الردف والأنداء والابتسامات الخليعة الفاجرة حتى تزلزل فؤاد الضابط وتغويه فيطلق سراح منسيلوخوس[1]

هذه هى الكوميديا الشائنة التى طعن بها أرستوفان خصمه العظيم يوريبيدز ، وقد حاول فيها استعمال طرائق شاعر الدرام الكبير ووسائله فى التعبير والأداء . وقد استطاع بها أن يشير حنق يوريبيدز وأن يحيل بقاءه فى أثينا إلى مرارة وتلدد وبرم بالناس وبالحياة ... وقد ألف أرستوفان فى خصمه غير هذه الملهاة شيئاً كثيراً ضاع أكثره لحسن حظ الأدب — أو لسوئه ، لا ندرى ! — فلما مات يوريبيدز سنة ٤٠٦ ق . م ، ألف أرستوفان ملهاته الخالدة (الضفدع) سنة ٤٠٥ التى تسمو إلى أفق (الطير) والتى عرض فيها ألواناً جديدة من الخيال وجمال التصور ، وأطلق (لتفنّنه !) عنانه ، فاستحق التخليد برغم رجعيته وجهله أحياناً . . . وقد سبق أرستوفان فى هذه الملهاة إلى ابتكار النقد الأدبى المبنى على القواعد والقوانين ، بل هو قد وضع الكثير من قواعد النقد فى موازنته بين إسخيلوس ويوريبيدز فى حوارهما الشائق اللذيذ الذى اشترك فيه الإله باخوس

حزن الإله باخوس حزناً شديداً حين افتقد شعراء الدرام بعد سوفوكليس ويوريبيدز اللذين ماتا فى عام واحد فلم يجد من يسد فراغهما ، ولذلك اعتزم الرحلة إلى الدار الآخرة (هيدز) كما صنع هرقل من قبل عسى أن يرد منها يوريبيدز كما رد هرقل ألسستيس ؛ ويبدو باخوس فى جلد أسد وقد تزيى بزى هرقل وحمل عصا غليظة مثل عصاه ، وإن يكن مع ذلك يبدو فى صورة مخنثة كدأبه دائماً — ثم يكون إلى جانبه عبده — أو خادمه — إكسانثياس — وقد علا صهوة جحش وحمل على كتفه عكازة طويلة (شَعْروخاً !) علق فيها (مخلاته) وحقائبه وكل ما يلزم فى مثل هذه الرحلة الطويلة الشاقة من زاد وماء ونحوهما ... وقد علق هذه الأشياء فى طرف العكازة حتى (تحفظ الموازنة) معه ... ففى المشهد الأول الذى يشك المؤرخون فى أن يكون كذلك (أى فى أن يكون هو المشهد الأول لأن الملهاة غير مرتبة وقد ضاعت بعض جذاذات منها) نسمع أصواتاً من التنادر (التنبيط !) يتقاذف بها شعراء — أو شويعرون — يجتهد كل منهم أن ينال رضا النظارة بإتقان التهريج وإجادة (التنكيت !) وقد وقف بينهم باخوس — بوصفه حامى مسرح الدرام ! — كالصنم لا يحير .. ثم ينتهى المشهد بنقاش سوفسطائى بين باخوس وخادمه ... ويهبطان إلى هيدز ، ويفتن أرستوفان فى إنهاض الموتى لتكلم الزائرين ، ثم يأتى أروع مشاهد الملهاة وهو هذا الحوار الأدبى الرائع بين إسخيلوس ويوريبيدز من حيث منهاج كل منهما فى الشعر ووجهة نظره فى الأدب — وهنا لا يستطيع أرستوفان إخفاء غله على يوريبيدز ، بل يختم المشهد بنصرة إسخيلوس (الذى كان يمثل الفضيلة الأثينية والرجولة اليونانية ، والشجاعة والإقدام ... لا هذا الأحمق يوريبيدز الذى هو سبب فساد روح المصر ، وأصل خراب الأخلاق !) ... ثم تنتهى الملهاة بطرد يوريبيدز ليستقر فى مثواه السحيق من هيدز وقد رهقت وجهه قترة !

والمدهش فى هذه الملهاة العجيبة هو قيامها على النقد الأدبى البحت ، وهو وإن يكن نقداً بدائياً إلا أن المعارضات التى أتحفنا بها أرستوفان تجعلنا نعجب كيف كان الجمهور الأثينى فى هذا العصر يسيغ مثل هذا الحوار الذى هو فوق أفهامه ، بل يضحك له ويغرق فى الضحك ! ثم كيف يحدث هذا ، وقد كانت أثينا على شفا الهاوية ؟ ألم تدخلها جيوش اسبرطة بعد هذه الملهاة بسنة واحدة ؟ !

إن ضحك الأثينيين هكذا على نخر شعرائهم يوريبيدز هو آية انحلالهم وانقضاء دولتهم ... وقد حصل !

دريني خشبة

[1] التلخيص عن ترجمة وم جيمس هيكي مجموعة دائت رقم ٥١٦

صفحة من حياة شاعر

عاشق ومجنون!...

للأستاذ صلاح الدين المنجد

كان اسمه جيرار دى نرفال، وكان مولده فى باريس حيث الغيوم البواكى وحيث الجو المكفهر. أما أبوه فكان طبيباً فى الجيش، وأما أمه فكانت بنت بائع فقير. فنشأ فى قرية أودعه فيها أبوه، بعد أن قضت أمه، وأرسل إلى القتال. فنبت بين الحقول الواسعة، والسهول المتوثبة نحو الأفق البعيد. وطابت له الحيـاة فى هذه القرية التى لا تُسمع فيها الأصوات النابية تتعالى على جنبات السين، ولا يُرى فيها فوران الناس بين الأحياء والشوارع، وإنما تسمع فيها أصوات العجائز الخافتة، وهن يتحدثن عن طرائف السحرة والجان، ويرى فيها أسراب الغنم تقودها الفتيات والرعيان. وأحب الحياة فى القرية، فأثر ذلك فى حياته. ثم خلّف القرية إلى باريس ليشدو فيها العلم. وما كاد يبلغ الثانية والعشرين حتى أخرج للناس طائفة من أشعاره. ثم قرأ «غوته» فكلف بكتبه، وعزم على نقل «فوست» إلى الفرنسية. وسرعان ما نفذ ما عزم عليه، فجاءت آية رائعة أعجب الناس بها كثيراً. فقدروا صاحبها ورمقوه. ودفعه هذا الظفر الذى سعى إليه مذ سلك طريق الأدب إلى انتخاب قطع من شعر «رونسار» وأخرى من أشعار «غوته» و«شيلر» ليقدمها إلى الناس. ثم انكب على الشعر يقرأه وينظمه ووجد أن حياة الأديب، وما فيها من كسل وما فيها من أحلام، قد صادفت من نفسه هوى، فهو لا يصلح بعد اليوم إلا لها. فقد كان له مزاج الأديب وإحساس الشاعر. وكان كما يقولون عنه دقيق الفكر رهيف الحس واسع الخيال، يسكن إلى الأحلام، ويقضى ساعات من نهاره وساعات يفتش عن حلم يرضى عنه. ويظهر لنا من أشعاره أنه كان يجد فى الأوهام راحة لنفسه... فهو لا ينفك يتوهم ويتوهم. فهو يصف لنا، كيف يستشف أشباح الجان من وراء الغيوم... فيصيخ بسمعه إلى عزيفهم المبهم تارة والمخيف طوراً... يرسلونه مع زفيف الريح الثائرة. ويراهم مختبئين بين طيات السحاب... فيناديهم، فيأتون سراعاً يحيطون به... يكلمونه قليلاً ويحدثهم قليلاً. ثم إنه ليتمثل نفسه طائراً... يقفوه نفر من الجن، يسرح معهم فى الفضاء حتى يصل إلى السماء، فينظر إلى الأرض الخاضعة تحت قدميه، أو يتمثل نفسه حيناً آخر هابطاً إلى سيف البحار ليستجم قليلاً، ثم ليهبط إلى قرارة البحار فيرى الحيتان والأسماك، ويزور أميرات الجن فى قصورهن المتلألئة فى قاع البحار

وكان لا بد له وهو فى مثل هـذا الحس الرهيف والخيال العميق والسن الباكرة أن يحب ويعشق. ولقد أحب؛ ولكن حبه كان لوناً من الحب لم يكن للناس به عهد من قبل. فإن فيه كثيراً من الطرافة التى تعجب، والفكاهة التى تُطرب. فهو لم يعشق فتاة رآها فى الشارع أو الطريق، ولا لقيها فى الحقل أو عند النبع، وإنما عشق فتاة رآها فى حُلُمه. فلقد مسّ الكرى أجفانه ذات ليلة مساً رقيقاً أنساه نفسه ودنياه: «هأنذا فى قصر «مورتو فونتين» أرتع بين رياضه، والقمر الساجى يرسل أشعته فتهوى فاترة كليلة... تضيء القصر ذا الجبهة الحمراء ثم تختفى بين أزهار الزيزفون. وفجاءة تبدو فتيات حسان... يرقصن على النغم، ويغنين الأغاريد؛ وكنت وحيداً فحدقت فيهن ورأيت فتاة شقراء ناعمة الشباب غضـة الجمال قد اكتنفنها وأخذن يتمايلن معها. سمعتهن يناديتها: تعالى يا أدريان! فملكت علىّ فؤادى؛ وأقبلن نحوى فرقصن. ها هى ذى بين ذراعىّ... أرقص معها. لقد سمعت من يهمس فى أذنى أنْ قبلها ولا تخف فهى لك. فضممتها إلىّ وقبلتها، ثم جلسنا حولها لتغنى لنا. فغنت بصوتها العذب الحلو أغرودة من أغاريد الأقدمين تفيض بالحزن، وتفيض بالسحر، فيها قصة تلك الأميرة التى أودعوها البرج الشاهق.. لأنها أحبّت فتى غرانقاً

«وكانت الفتاة الشقراء تغنى فتنحنى الأشجار، وتأتى أشعة القمر ترقص حوالها فتحفها بنور يبهر الأبصار ويعشيها. وغفلنا عن الليل، وحسبنا أننا فى جنة عدن، فقمت إلى غصن من الغار لأضعه على رأسها، ولكنها قامت تتثنى وتلهو... ثم اختفت بين الخمائل عن أبصارنا... وتلاشى صوتها... ونأى طيفها، ولكن صورتها ما تزال فى نفسى لا تغادرها بعد أن تغلبت على كل صورة [1]»

(١) من قطعة له اسمها «أدريان».

تلك قصة حبه ، ولقد كان وفياً لهذا الطيف الذى قبله ورآه واعتقد أنه راجع إليه لا محالة ... فسماه « زهرة الليل التى تفتحت تحت أشعة القمر الشاحب » وسماه «الطيف الوردى الأشقر الذى اختفى بين الأعشاب ، والتف بالسحاب »

وفكّر شاعرنا طويلاً فى زهرة الليل ، فانكب على السحر وما يمتّ إليه بسبب يدرسه ويقرأ أصوله كأنما أراد أن يسخره لإحضار أدريان . وكان يسمع عن الشرق أقاصيص حلوة طربت لها نفسه ورضى عنها هواه ، فتمنى لو زار تلك البلاد التى هبطت إليها الأحلام ، ورتعت بين جنباتها الأوهام ، فيدرك ما فيها من أمور يحيط بها الغموض والخفاء . وخُيِّل إليه أن أدريان هى بلقيس صاحبة العرش العظيم ، أتت إلى القصر الأحمر لتهمس فى أذنه أسرار الدنيا وتدله على طريق الخلود

ويذكر لنا من كتب عنه أنه كان يعتقد فى تقمص الأرواح، وأن نظرته إلى أدريان كانت نتيجة لذلك الرأى . ولقد أصبح هذا الرأى لديه يقيناً عند ما قضى بين دروز سورية ردحاً من الزمن غير قصير . على أننا لا ننكر أن للمخدرات التى كان يقتل بها جسمه ويفنى نفسه أثراً فى إخلاده إلى ما أخلد إليه . والعجيب أن يعتقد بأن تلك الأوهام حقائق ، على حين يعتقد الناس أن الحقائق أوهام . وكان من خبره بعد ذلك أنه التقى ذات ليلة براقصة فى حانة بباريس لحسبها أدريان الحبيبة . وبُعث الهوى الأول وهاج الشوق القديم ، فقال فى نجواه لنفسه : لقد عادت إلىّ بعد أن اختفت بين الرياض . ولازم المقهى لا يغادره إلا لحاجة ليملى بصره من جمال هذه الراقصة التى تقمصتها روح أدريان . وكان يغمرها بأزاهيره التى كان يرسلها وعليها اسمه ... ملتمساً بذلك لنفسه وصلاً عندها ، قانعاً بالنظر دون الكلام . ولكنها ازورّت عنه بعد أن رأت جنونه وعلقت فتى كان يغنى فتزوجت به

وزاد جنون شاعرنا عند ما تخطى الثلاثين ، فقد رأى فى إحدى الأماسى نجماً يضطرب فى السماء ، فضحك له وظن أنه بلقيس تناديه لتذهب به إلى الشرق . فأخذ يقهقه ويغنى ويقفز ويبكى ، وينزع أثوابه ويمد يديه نحو النجم المتلألئ منادياً تارة ومغرّداً أخرى حتى مرّ به بعض من عرفه ، فأشفقوا عليه ورثوا لحاله وقادوه إلى الطبيب

وذهب ما ألمّ به بعد ثمانية شهور قضاها فى مصح للطبيب « بلانش » فعزم على الرحيل إلى الشرق . فترك باريس سنة ١٨٤٣ وكان له من العمر خمس وثلاثون سنة قاصداً جزيرة مالطة، ثم رحل عنها إلى الاسكندرية فالقاهرة . فراعه منها آثار مدينتها القديمة وعزّها الخالى ، وأعجبه زىّ المصريين فتزيّا به ، وحاول أن يتعلم العربية فلم يفلح . ثم ترك مصر قاصداً سورية ومعه جارية سوداء اسمها زينب

وجد شاعرنا فى سورية ضالة نفسه . فقد درس ما فيها من ديانات ، فأعجبته منها الدرزية . وزاد يقينه بالتقمص واعتقد أن بلقيس لا بد آتية إليه بعد أن فرت أدريان وأعرضت عنه جون[1] . ألم يجتمع ببلقيس فوق ثبج البحر على سفينة صنعت من الذهب ، ورصعت بالدر ، وحفت بها الجان ، فضمها إلى صدره وروى فها الظمآن من قبلاته ؟

وعاد عقله إلى الاختلاط فترك بيروت إلى القسطنطينية فأقام بها زمناً، يقول : « بلغت البوسفور ... فالتفتُّ نحو مصر الجميلة فإذا هى وراء الأفق البعيد »

« لقد ذكرت وطنى الذى تركته منذ شهور ، عند ما وطئت قدماى هذه الأرض الأوربية التى استولى عليها المسلمون . والتفت حوالىّ ... فإذا أنا أمام حلاق أرمنى يقص اللحى ... ويقدم القهوة . ورأيت جمعاً من الكلاب النائمة على الطريق . ولقيت شيخاً وقوراً يحمل عمته الكبيرة مستلقياً على العشب ... نائماً ملء عينيه ، يحلم بالجنة التى وعد الله عباده الصالحين » .

وعاد جيرار إلى باريس فكتب « مشاهد من الحياة الشرقية » أخرجها للناس بعد أربع سنوات . وما زال يتنقل بين السجون لجنونه والبلاد المجاورة ، برماً ببلده ومحيطه ، سائلاً ربه «ألا يبدّل من حوادث الكون شيئاً ، وإنما يبدل ما يحيط به من الأشياء ليعيش وحيداً فى عالمه الجديد » مخرجاً للناس « ذكريات ونزهات » و « بنات النار » و « قصور بوهيميا الصغرى » حتى لقى مصرعه الذى كان يمشى نحوه ببطء منذ زمن طويل .

فقد ألحت عليه الأوهام واشتدت فى الإلحاح فأذعن لها ،

(١) كان اسم الراقصة التى أحبها : « جون كولون »

من العوائد المغربية الممتازة

سلطان الطلبـــة

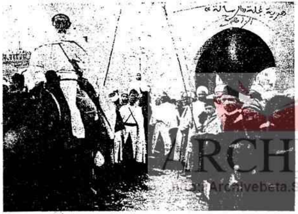
بمناسبة تتويجه فى ربيع هذا العام

للأستاذ إدريس الكتانى

سيبدو هذا العنوان غريباً عن إخواننا فى الشرق . وليس عجيباً هذا ، فالمغرب نفسه — لا تاريخه فحسب — غريب فى نظر بعض الشرقيين عن الشرق . أما نحن هنا فليس منا من لا يعد المغرب قطعة من الشرق العربى ، وجزءاً لا يتجزأ من الجامعة الإسلامية الكبرى . فعسى أن يعمل إخواننا الشرقيون على هذا الاعتبار ، ويقلعوا عن تجاهلنا وتناسينا فى وقت نجعل نحن فيه الشرق — ومصر فى الطليعة — محط أنظارنا وكعبة معارفنا ؛ ونتطلع إليه كالمنحط فى أسفل الوادى يروم معرفة ما فوق الروابى التى تعلوه

عفا الله عنا وعنكم يا إخواننا المصريين ! كلانا مقصر نحو أخيه، ولكن ما عذركم أنتم — وقد أتيح لكم أكثر من ذى قبل — أن تقولوا وتعملوا عملاً صالحاً ، وأن تمدوا يد الإسعاف لهذا الشرق العانى فتوقظوه من غفوته ؟ إن اليد الضعيفة مع أختها يد قوية ، وهى مع أخواتها الضعيفات أشد وأقوى . قد والله نعقل كثيراً ولكننا لا نعمل إلا ونحن جهلاء ... عفا الله عنا ...

فى تاريخ الحياة العلمية بالمغرب الأقصى ما يجعل المغاربة دائماً يفخرون بأمجاد الأجداد ، ويعتزون بما خلفه ملوك العرب وأمراء الإسلام من المآثر الحميدة بهذه البلاد العربية الإسلامية . وفى الحق أن الدول التى تعاقبت على المغرب لا يخلو تاريخها من حسنات شتى فى مصالح البلاد العامة . وكم نجد لهم فى خصوص النواحى العلمية من اهتمام خص بالعلم والعلماء والأدب والأدباء ؛ ولكن الذى يؤسف له حقاً أن الكتب التاريخية لا تزال حتى الآن موضوعة على الرفوف أو مدفونة فى الخزائن تلعب بها الأيدى



جانب من موكب (سلطان الطلبة) وعلى الصورة إهداؤه إلى الرسالة بخطه

الجاهلة إذ تتركها غذاء للأرضة ، وملعباً للخنافس والعناكب

وليس يهمنا الآن أن نلم بجميع ما لتلك الدول من المفاخر الخاصة بنشر التعليم وتشجيع طلابه ، فهذا ما يملأ كتباً عدة ، وحسبنا من ذلك أن نأتى بوصف أحد تلك المظاهر (الممتازة) فهذه وحدها دليل ساطع على الشعور الكامن من قديم فى نفوس ملوكنا نحو بعث التعليم ونهضة الحياة العلمية . ويلاحظ على الخصوص فى هذه الظاهرة مبلغ تعمق ملوكنا فى فهم نفسية رعاياهم، وكيف ينفذون إلى قلوبهم فيملكون إحساسها بعبقريتهم الفذة ...

فى ربيع كل عام من بدء ثلاثة قرون مضت يقيم طلاب العلم بفاس ومراكش « سلطنة » رسمية لها أبهة السلطان وجلال الملك ، تدوم سبعة أيام ؛ ثم فى اليوم الثامن تتقوض وتنهار ويعود سلطان الطلبة بعد سلطنة أسبوع طالباً عادياً كما كان قبل أسبوع فقط !

واشتط فى الإذعان؛ وخيل إليه ذات ليلة أنه سياق بلقيس، فكتب إلى صديق له : « لا تنتظرنى هذا المساء ؛ فإن الليل سيكون أسود أبيض » ثم هام على وجهه فى طرقات باريس ذاهلاً حتى انتهى به المسير إلى مكان فيه أقذار وأوساخ فطاب له الجلوس عنده . فلما وهن الليل سمع غراباً ينعق ... فحسب أنه رسول بلقيس الحبيبة إليه ، فناداه وحدثه . ثم قام إلى نافذة فربط بها حبلاً علقه فى عنقه ونادى : « هأنذا قادم إليك » وما هى إلا ساعات حتى فاضت روحه وانتهت مأساته بعد أن قضى سبعة وأربعين عاماً يقظان حالماً . . . وخلف لنا آثاراً مملوءة بالحسن من الوصف والفريد من المعانى .

صلاح الدين المنجد

هذه أدوار فكاهية طريفة تقوم بها الحكومة المغربية رسمياً فى أواخر فصل الربيع من كل سنة، وهى عادة يلذ للسائح الأجنبي أن يشاهدها ويسجل شتى مظاهرها، وقد تسلسل العمل بها منذ القرن الحادى عشر دون أن يحدث ما يمنع سيرها المعتاد

والحديث عن هذه السلطنة تجره إلى أفواه الطلبة طلائع أيام نيسان التى تتفتح فيها الطبيعة عن أكمامها، وتبتسم الأغصان عن أزهارها، وتحلو الحياة لأبنائها

فإذا هجم نيسان نشوانَ طروباً يجر أثوابه الخضراء اليانعة، هب طلبة القرويين بفاس وطلبة الكلية اليوسفية بمراكش يطلبون من جلالة الملك الإذن لهم فى إقامة سلطنتهم السنوية. وعند الترخيص لهم بذلك يجتمعون على انفراد بإحدى مدارسهم التى يسكنونها، ثم يقوم « مقدم » المدرسة منادياً ببيع « سلطنة الطلبة » بالمزاد العلنى، ولكل طالب الحق فى أن يبتاعها لنفسه مادام يستطيع أن يزيد فى ثمنها على غيره، فإذا انتهت فيها الرغائب ووقف ثمنها على طالب ما، سجل العدليان الشرعيان اللذان يحضران هذا المزاد هذا البيع على الطالب المشترى، ثم ينفض جمع الطلاب معلنين سلطانهم. أما ثمن هذه « السلطنة » فيتراوح غالباً بين ١٠٠٠٠ و ٥٠٠٠ فرنك. ويلاحظ أن شراءها خاص بالطلبة الغرباء عن البلد محظور على غيرهم. ولعل هذا الامتياز قصد إليه لترغيب أهالى البادية والحواضر النائية فى ورود منهل العلم من كليتى القرويين وابن يوسف، وتشجيعهم عليه بإدخال أسباب الغبطة والانشراح إلى صدورهم

أما مهمة هذه « السلطنة » فهى قيام (سلطان الطلبة) على رأس رعاياه فى موكب رسمى حافل، بنزهة على شط وادى الجواهر بضواحى فاس(١) وهذا الموكب فى هيئته المؤلف منها صورة مصغرة لموكب صاحب الجلالة ملك المغرب مولاى محمد الخامس أيده الله

ويقوم « سلطان الطلبة » على أثر تعيينه بتأليف هيئة حكومته من نخبة أصدقائه الطلاب ومن بينهم وزير للمالية ومحتسب بارع فى الهزل والنكات الفكاهية

(١) ومثل هذا يكون بمدينة مراكش

وفى أول جمعة تلى ذلك ترسل الحكومة المغربية لسلطان الطلبة كسوة فاخرة وتقوم بتنظيم موكبه الرسمى. وعند الساعة الحادية عشرة يتحرك هذا الموكب من المدرسة التى يتفق أن سلطان الطلبة ساكن بها، فيركب هو جواداً مطهماً وترفع المظلة الملكية « الشمسية » فوق رأسه ومن حوله الحراب تحملها الشرطة، وتتقدمه موسيقى عسكرية ثم قواد (المشْوَر) فرساناً حاملين السيوف، وتتلوه حاشيته وجمهور غفير من رعاياه الطلبة مشاة على الأرجل، ثم أصحاب الطبول والمزامير، ويحيط بالجميع من اليمين إلى الشمال سلسلتان من الشرطة والعسس ومقدمى الحارات، ويخترق الموكب الأزقة والشوارع سائراً بين أمواج صاخبة من الأهالى إلى أن يصل إلى جامع الأندلس فيؤدى السلطان به صلاة الجمعة. ثم يتابع الموكب سيره لزيارة ضريح السلطان الأعظم مؤسس عرش الدولة العلوية الشريفة المولى الرشيد سنة (١٠٤٠ — ١٠٨٣ هـ) بداخل قبة الشيخ أبى الحسن على بن حرزهم بمقبرة الغرباء خارج باب الفتوح، وهذا السلطان هو الذى سن للطلبة هذه « السلطنة » وحباهم بعطفه الكبير فهم يزورون ضريحه أولاً قياماً بواجب شكره وتذكاراً لعهده اللامع. وعند المساء بعد صلاة العصر يعود موكب « سلطان الطلبة » من حيث أتى بينما الوجوه تطفح بشراً، والنساء يملأن السطوح بزغاريدهن المازحة العابثة

وفى عشية اليوم التالى يخرج « سلطان الطلبة » فى موكبه الرسمى كهيئته الأولى قاصداً إحدى ضواحى المدينة حيث ضربت خيام « دولة الطلبة » بسهول خضراء على ضفاف وادى الجواهر يتوسطها سرادق كبير لسلطان الطلبة وحاشيته. وتقدر هذه الخيام بنحو المائة غالباً خمسون منها للحكومة، وهذه خاصة بالطلبة تضم كل منها جماعة من بينهم، وباقى الخيام للأهالى الذين يلذ لهم أن يقضوا نزهتهم الربيعية بجوار « دولة الطلبة » التى تعيش أسبوعاً واحداً، وقد يرخص لها بزيادة أسبوع آخر.

وتقوم واردات الميزانية العامة لهذه « الدولة » المحدودة بالزمان والمكان من:

١ — ثمن « السلطنة » الذى يدفعه « سلطان الطلبة »

على أن تتعهد له الحكومة فى مقابل ذلك بإجابة طلب يتقدم به إليها كإطلاق سراح مسجون له ، أو جعله موظفاً فى بعض الإدرات ونحو هذا .

٢ — الهدايا التى يقدمها جلالة الملك إلى الطلبة باسم سلطانهم ، وتكون هـذه عادة من الأكباش وأكياس الحنطة وأكياس من السكر وغيرها ، ومن المال أيضاً .

٣ — الهدايا التى يتقدم بها الأهلون إليهم عن طيب نفس .

٤ — الضرائب التى يجبيها « سلطان الطلبة » من وجوه البلاد وتجارها بواسطة (ظهائر) موقعة بإمضائه والتى يؤديها هؤلاء بكل سرور .

٥ — (الذعائر) التى تجمع بواسطة «محتسب» سلطنتهم الماجن الذى يرتدى حلة فى شكل مضحك ، ويجعل فى عنقه سبحة من التين يلتهم منها الواحدة بعد الأخرى من حين إلى آخر ، ثم يتجول فى شوارع المدينة راكباً بغلة ، وواضعاً فى حجره صندوقاً مغلقاً يظل يملؤه — من ثقب فيه — بالفرنكات والريالات (كذعيرة) يفرضها على التجار والبقالين بزعم أنه وجد فى مبيعاتهم غشاً يعاقب على ارتكابه .

وفى خلال أسبوع هذه « السلطنة » ينصرف الطلاب جميعاً للمرح واللهو بقلوبهم وعقولهم معاً ، ويقبلون على حياة بعيدة عن حياة الجامعة فيها متعة النفس وصفاء الحديث وطرب القلب .

فإذا مضت ستة أيام وأقبل يوم الأربعاء ، تهيأت «أمة الطلبة» حكومة وشعباً لاستقبال جلالة الملك أو خليفته — إن لم يكن هو فى البلد — الذى يشرف مملكتهم الصغيرة فى موكب عظيم ليقدم لهم هداياه الخاصة ، وفى المشية ينتظر « سلطان الطلبة » مع هيئة حكومته سلطان المغرب المفدى؛ حتى إذا لاح موكبه عن قرب ترجل الأول عن فرسه . وتقدم إلى السلطان الأعظم مطأطئاً رأسه، فيقبل يده الكريمة ، ويرفع إليه الكتاب المتضمن طلبه الخاص الذى يؤمل من جلالته الأمر بتنفيذه ، ثم يرجع إلى الوراء فيركب فرسه ، ويتقدم إلى أن يقف قريباً منه

وهنا تتمثل لنا الديمقراطية الحق فى ملوكنا الذين ورثوها كابراً عن كابر ، ففى هـذه الساعة يتنازل « سلطان المملكة المغربية » فيتحدث إلى « سلطان الطلبة » بكل تواضع حديثاً تمليه العاطفة ، وتوحيه الرغبة الصادقة فى بعث النهضة العلمية .

وفوق ذلك يتنازل لسماع حديث دعابة ومزاح ممتع من محتسب سلطان الطلبة الحاذق فى الفكاهة والمجون . فإن هذا يتقدم من جلالة الملك ويخاطبه بصوت جهورى أمام ألوف من الناس بنحو قوله : كيف استطعت وأنت ملك كسائر الملوك العادين أن تقف بجانب أكبر ملك فى الدنيا تخضع لأوامره ملايين من القمل والذباب والضفادع والبراغيث وغيرها من الهوام والحشرات ؟ فيرد عليه جلالة الملك بنكتة رقيقة تمثل سمو الهزل عند الملوك ، ويسارع سلطان الطلبة فيعرب عن قبوله لجلالته ضيفاً فى مملكته ويرحب به باسم أمته أكبر الترحيب . ثم يقوم المحتسب الماجن فيلقى أمام السلطانين ورعاياهما خطبتين ضاحكتين عابثتين فى الإشادة « بالزردة » والتنويه بالأطعمة الفاخرة

وعند الفراغ من هذه المظاهرة الرائعة يستأذن جلالة الملك من سلطان الطلبة فى الرجوع فيأذن له بعد أداء الاحترام الواجب ويعود جلالته فى موكبه الفخم إلى قصره العامر .

وفى الجمعة التالية يقوم سلطان الطلبة فى موكبه بأداء صلاة الجمعة فى جامع أبى الجنود ، ثم يرجع لمقر دولته التى لا يبقى على انهيارها إلا يوم واحد. ففى مساء اليوم التالى يكون الطلبة على أهبة الرجوع لمدارسهم حيث تستأنف الدراسة بالكلية صباح يوم الأحد

ويدهشك بل يغريك بالضحك الذى لا تملك معه نفسك أن تجد الطلاب صباح يوم السبت يبحثون عن سلطانهم فلا يجدونه. لقد فرّ ليلة هذا اليوم مختفياً بين غضون ظلامها القاتم خوف أن يصبح على أبواب ثورة عامة من رعيته التى يلذ لها أن تنقض عليه يوم انتهاء سلطنته حتى لا يدخل إلى نفسه شيطانها فيوهمها أنه حقاً « سلطان الطلبة » وأن واجباً عليهم أن يخضعوا له ويقروا بسلطانه عليهم

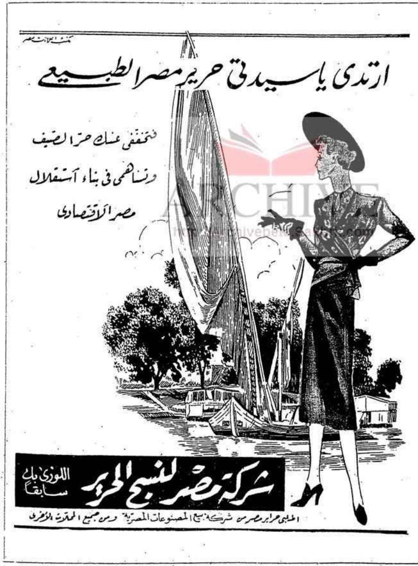
هذه هى الرواية التمثيلية التى ألفها السلطان « مولاى الرشيد » لطلبة العلم وبعثهم على تمثيلها بأنفسهم كل سنة على مسرح الحياة لكى يعطيهم درساً عملياً فى التدريب والتمرين على أن يكونوا

رجالاً أكفاء مقتدرين لهم ما للناس في الحياة من حق

وفي ظني أنه لو كان معروفاً لدى حكومتنا الماضية نظام الكشافة الحديث ، لما جعلوا غير الفرق الكشفية مع موسيقاها المذبة جنداً وحراساً لموكب « سلطان الطلبة » حرصاً على أن يكون المظهر طالبياً بحتاً ، يمثل أمة في الطلبة بسلطانها ، وجندها وموسيقاها ، وفي هذا وحده من الروعة والمظهر الجذاب ما يشوق الأبناء إلى التعلم ويبعث الآباء على تشجيعهم عليه بالبذل والسخاء . أما الآن ، فالمستقبل كفيل بأن يكون هذا وأكثر من هذا . وعسى أن ينتبه الطلبة من الآن إلى هذه النقطة الدقيقة فيؤلفوا من بينهم فرقاً كشفية تقوم بهذه المهمة ، فوق أنها تكون عضواً عاملاً في النهضة المغربية الحديثة .

هذه رواية ناطقة أتينا على وصفها معتمدين على ما شاهدناه ، وسمعناه ، لا على ما قرأناه . فإن تاريخ نشوء هذه « السلطنة » والأسباب التي دعت إليها ووصف مناظرها ومظاهرها المتنوعة ، كل هذا طواه الزمن في مهملات التاريخ. وما أكثر ما أهمله التاريخ وليت شعري ما الذي حدا بالمؤرخين المغاربة إلى عدم الاكتراث بهذه المنقبة الخالدة ؟ أكبر الظن عندي أن هؤلاء اطمأنوا إلى بقائها وخلودها مشاهدة أكثر من اطمئنانهم إلى بقاء مؤلفاتهم التاريخية فاعتمدوا على ذلك ولم يكتبوا ومن يدري؟ فلعلهم كتبوا وأضعنا نحن فجهلنا ، وأيًّا كان الأمر فإن اطمئنانهم إلى بقاء « سلطنة الطلبة » قد صدق وسيبقى صادقاً إلى الأبد . ولا أنكر فهناك في بعض الكتب لمحة رقية وعلى الأفواه أسطورة تاريخية وعندي أطروفة فكاهية ، فإذا سنحت الفرصة فسأقص خرافتي وإلى اللقاء يا قرائي وقارئاتي في الشرق الحبيب

« فاس — المغرب » ادريس الكتاني



في بلاط الخلفاء

بين الشعبي وعبد الملك

للأستاذ علي الجندي

[تتمة ما نشر في العدد الماضي]

أقبل الخليفة على رجل جالس بين يديه يرتدي جبة[1] خز قد ابيض شعر رأسه ولحيته ، وتدلى من عنقه صليب ذهب ، ورائحة الخمر تنفح من عارضيه ! فقال له : ويحك ! من أشعر الناس ؟ فأجاب الرجل — وفي صوته رنة الزهو والخيلة والثقة بالنفس — أنا يا أمير المؤمنين

ولم يكد الشعبي يسمع هذه الكلمة حتى تمعّر وجهه ودارت به الأرض ، فذهل للمرة الثانية عن آداب السلوك في حضرة الملوك ، فصاح بصوت يقطر غيظاً : من هذا يا أمير المؤمنين الذي يزعم أنه أشعر الناس ؟

ما كان أغنى الشعبي عن هذا السؤال لو أنه روّى في الأمر قليلاً ! ترى من يكون هذا الجالس بين يدي الخليفة جلسة الصديق المدلّ بمكانته غير أمدح مدّاح الإسلام ، وآدب أدباء النصرانية ، ولسان تغلب ابنة وائل ومِدره ربيعة ، والنافح عن البيت الأموي وشاعر أمير المؤمنين أبو مالك الأخطل ؟

لم يستطع عبد الملك أن يكتم استعجابه من محلة الشعبي بالسؤال وجهله بشاعره الفذ وجرأته عليه ! ولكنه تكلف الحلم ورمى الشعبي بنظرة نفذت إلى أعماقه قائلاً : يا شعبي ، هذا شاعرنا الأخطل

وكان ما حدث كافياً أن يرد الشعبي إلى صوابه ويَفْثأ من غضبه على الأخطل ، ولكنّ شيئاً من ذلك لم يحدث ، فولّى وجهه شطره — زاوياً ما بين عينيه — وهتف : يا أخطل ، أشعر منك الذي يقول :

هذا غلامٌ[2] حسَنٌ وجهُه مُقتبَل الخير سريع التَّمام

للحارث الأكبر والحارث الأصـــغر ، والحارثُ خير الأنام

خمسةٌ آباؤُهم ما هم ، هُمُو خير من يشرب صوبَ الغمام

وكأن عبد الملك أعجبته هذه الأبيات فسُرِّي عنه وقال : ردّدها عليّ . فردّدها الشعبي عليه حتى حفظها

بَلِ هذا التحدّي من الأخطل وشعر بالصغار والضعة ، فمسح بيده على جبينه الندّي وقال في غمغمة الضجِر : من هذا يا أمير المؤمنين ؟ قال عبد الملك على أحد جانبيه قائلاً : هذا الشعبي فقيه العراق . فزمّ الأخطل بأنفه وأرسل نفساً عميقاً وقال : أمير المؤمنين — حفظه الله — إنما سألني عن أشعر أهل زمانه ، ولو قد سألني عن أشعر أهل الجاهلية لكنت حريّا أن أقول كما قلت

وهمّ الشعبي أن يتكلم فقاطعه عبد الملك بالسؤال عن حاله — وقد شُغِل بالحوار عن ذلك — فقال : إني بخير يا أمير المؤمنين ومضى يتأنق في صوغ المعاذير عما كان من خلافه على الحجاج وخروجه مع ابن الأشعث

وكان عبد الملك نبيلاً حقاً فابتدر قائلاً : مَهْ يا شعبي فإنا لا نحتاج إلى هذا المنطق ، ولست تراه منا في قول ولا فعل حتى نفترق ! وأراد أن يزيد في طمأنينته فغير وجهة الحديث قائلاً : ما تقول في النابغة ؟ فقال الشعبي : إن عمر بن الخطاب قد حكم له بالسبق في غير موطن على الشعراء . وذلك أنه خرج يوماً — وببابه وفد غطفان — فقال : يا معشر غطفان ، أي شعرائكم الذي يقول :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

قالوا : النابغة . قال : فأيكم الذي يقول :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

قالوا : النابغة . قال : فأيكم الذي يقول :

إلى ابن مُحرِّق[1] أعملت رحلي وراحلتي وقد هدت العيون

أتيتك عارياً ، خَلَقٌ ثيابي على خوف تظَنُّ بيَ الظنون

فألفيت الأمانة لم تخنها كذلك كان نوح لا يخون

قالوا : النابغة قال هذا أشعر شعرائكم

(١) تراجم الأخطل في الأغاني وغيرها
(٢) الأبيات للنابغة الذبياني

(١) يمدح النعمان بن المنذر

ثم أقبل عبد الملك على الأخطل فقال : أتحب أن لك قِياضاً بشعرك شعرَ أحد من العرب ، أو تحب أنك قلته؟ قال : لا ، والله، إلا أنى قد وددت أنى قلت أبياتاً قالها رجل منا ، كان والله مُغْدِف(1) القناع ، قليل السَّماع ، قصير الذراع ! قال عبد الملك : وماذا قاله ؟ فأنشده الأخطل القصيدة :

إنا محيوك فاسلم أيها الطّلل ... وإن بَليت وإن طالت بك الطيل

حتى وصل إلى قوله :

قد يدرك المتأنى بعض حاجته ... وقد يكون مع المستعجل الزلل

وقبل أن يسمع الشعبي رأى عبد الملك فى الشعر ، هتف بالأخطل فى لهجة المتهكم الساخر : تالله لقد قال القطامى أحسن من هذا ! فأدنى عبد الملك تفاحة إلى أنفه فشمها ، ثم قال : وماذا قال القطامى ؟ فأنشده الشعبي :

طرقت جَنُوبُ(2) رحالَنا من مطرَق ... ما كنت أحسبه قريب المعنَق

ومر فى القصيدة إلى قوله :

وإذا يصيبك – والحوادث جمّة – ... حدثٌ ، حداك إلى أخيك الأوثق

ليت الهموم عن الفؤاد تفرقت ... وخلا التكلم للسان المطلق

فترنح عبد الملك طرباً إلى الشعر وإعجاباً به ! وصاح : ثكلت القطامى(3) أمّه ! هذا – والله – الشعر !

ونظر عبد الملك إلى الأخطل ، فإذا هو كالمغشى عليه من الموت فأخذته الحمية لشاعره ، وداخلته الشفقة عليه ، فقال ينعش نفسه ويشد منها : ما أشعرك يا أخطل حين تقول فى وصف الخمر

وتظل تنصفنا(4) بها قروية ... إبريقها برقاعه ملثوم

فإذا تعاورت الأكفُّ زجاجها ... نفحت فشمّ رياحها المزكوم

لم يخف على الأخطل ما أراده الخليفة ، فألقى على وجهه نظرة ملؤها الغبطة والرضاء ! ثم عطف على الشعبي – والزهو يعبث بعطفيه – فقال : أسمعت بمثل هذا يا فقيه العراق ؟ !

فتربع الشعبي فى مجلسه ، وتنحنح ، وأمرّ يده على لحيته إمراراً خفيفاً ، ثم صاح فى وجه الأخطل : بعض تَحَبُّبك ! فأشعر منك والله الذى يقول :

وأدكنَ(1) عاتقٍ جَحْلٍ ربحلٍ ... صبحت براحه شرباً كراما

من اللائى حُملن على المطايا ... كريح المسك تستلّ الزكاما

فقال الأخطل : ويحك ! ومن يقول هذا ؟ قال الشعبي : يقوله شيخك أعشى قيس . فصاح الأخطل كمن أصابه مسّ : قُدُّوس قدوس ! !

ولم يسع عبد الملك إلا أن يحكم للأعشى على الأخطل : إذ هناك بون بعيد بين خمر يشمها المزكوم ، وخمر تستلّ منه الزكام ! وهنا يشعر الأخطل بالخطر المحدق به ، ويرى أن ريحه قد لاقت إعصاراً ! وأنه رمى من هذا العراقى الدخيل بالداهية النكراء ! لقد استطاع أن يسدد إليه سهاماً قاتلة فى جلسة واحدة ! فما الظن به إذا تطاولت المدة وتراخت الأيام ؟ ! إنه لا محالة سيغلبه على مكانته من الخليفة ، وسيسحب عليه ذيل الخمول ! فتنبهت فى نفسه غريزة المقاومة التي أرهفها طول النضال بينه وبين جرير وغيره فى ميدان المهاترة ! فورم أنفه وانتفخت أوداجه ، وانتفشت لحيته ، ودارت عيناه فى رأسه كأنهما جذوتان ساعرتان ! وفغر فاه يدير فيه لساناً كأنه لسان ثور ! واتجه إلى الشعبي هاتفاً بصوت فيه مشابه من هدير البعير المُغتلِم : إسمع يا شعبي ، إن لك فنوناً فى الحديث وشجوناً فى المحاضرة ، وإن لنا طريقاً واحداً لا نحسن غيره ، ولست إخالك غير ثانٍ من عِنانك حتى تحملنى على أكتاف قومك فأدعهم حرَضاً ! !

فعلت هذه الكلمات النارية أفاعيلها فى الشعبي ! فمثله لا ينكر صولة هذا التغلبى الذى لم يتورع عن هجاء الأنصار ! ويعرف أن أبياتاً من هجائه المضّ الخبيث قد ترمى بقومه من حالق وتجللهم عارَ الأبد ! فيكون أشأم همدانى على همدان !

ولم يكد يتمثل الشعبي سوء هذه المغبّة حتى ذابت حماسته فقبع فى مكانه كالقنفذ الخشِب ! وساورته الرِّعدة من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ! فالتفت إلى الأخطل ضارعاً يقول : أَقِلْنِي

(1) مظلم (2) اسم امرأة (3) يقصد التعجب منه لا الدعاء عليه
(4) تخدمنا وتسقينا

(1) يصف زقاً من زقاق الخمر بالدكنة والاتساع والعظم

هذه المرة يا أبا مالك ! ولك عليّ عهد الله وميثاقه ألا أعود لمثلها أبداً !

وأحسّ الأخطل نشوة الظفر ! فقال (ماطاً صوته) : ومن يضمن لى ذلك أيها الشيخ ؟ فرفع الشعبي إلى عبد الملك عينين منكسرتين متوسلتين قائلاً : أميرُ المؤمنين

فضحك عبد الملك حتى بدت له سنّ سوداء كان يسترها !

وقال : أنا ضامن يا أخطل ألاّ يعرض لك بشيء بعد هذا !

فقال الأخطل : وأنا قد صفحت عنه يا أمير المؤمنين !

وأراد عبد الملك أن يصل ما انقطع من الحديث فقال : يا شعبي أى شعراء الجاهلية أشعر من النساء ؟ فقال الشعبي : الخنساء . قال : ولم فضلتها على غيرها ؟ قال : لقولها فى أخيها صخر :

وقائلة (والنعشُ قد فات خطوَها

لتدركه) : يا لهف نفسي على صخرِ

ألا ثكلت أمُّ الذين غدوا به

إلى القبر ! ماذا يحملون إلى القبر ؟ !

فقال عبد الملك : أشعر منها ــ والله ــ ليلى الأخيلية حيث تقول فى توبة :

مهفهف الكشح والسربال منخرق

عنه القميصُ لسير الليل محتقِر

لا يأمن الناس مُمساه ومُصبحه

فى كل حىّ (وإن لم يَغزُ) يُنتظر

كان لكلام عبد الملك أثر عميق فى نفس الشعبي ، فانخزل انخزالاً شديداً وكسف باله ! لقد انتصر على شاعر الخليفة ولكنّ الخليفة لم يُعتم أن أخذ له بالثأر المُنيم ! وقرأ عبد الملك فى وجه الشعبي ما يعتلج فى صدره من ألم بَرِّح ! فقال : يا شعبي لعله قد شقّ عليك ما سمعت ! فقال : إى والله أشدّ المشقة ! إننى لم أُفِدك إلا أبيات النابغة (هذا غلام حسن وجهه . . .) وقد أفدتنى أفضل منها

فقال عبد الملك : ياشعبي ، إنما أعلمناك هذا ، لأنه بلغنى أن أهل العراق يتطاولون على أهل الشام ، ويقولون : إن كانوا غلبونا على الدولة فلن يغلبونا على العلم والرواية ، وأهل الشام أعلم بعلم أهل العراق منهم !

ثم جعل عبد الملك يردد على الشعبي أبيات ليلى حتى حفظها ، فألقى المخصرة من يده — وهى إمارة[1] الإذن بالانصراف — فنهض الشعبي مودعاً

وخطر لعبد الملك أن ينتفع (بدبلوماسية) الشعبي ، فأوفده[2] إلى ملك الروم . قال الشعبي : فلما دخلت عليه جعل لا يسألنى عن شيء إلا أجبته ، وكانت الرسل لا تطيل الإقامة فأمسكنى عنده أياماً . فحين أردت الانصراف قال لى : أمن بيت المملكة أنت ؟ قلت : لا ، ولكننى رجل من العرب ... فدفع إلى رقعة خاصة وقال : إذا أديت الرسائل إلى صاحبك فسلمها إليه . فلما رجعت إلى عبد الملك ، دفعت إليه الرسائل ونسيت الرقعة ، ثم تذكرت بعد خروجى من الباب فكررت راجعاً ودفعتها إليه . فقال لى : هل قال لك شيئاً قبل أن يدفعها إليك ؟ قلت : نعم ، سألنى : أمن بيت المملكة أنت ؟ فقلت : لا، ولكننى من العرب . ثم خرجت فلما وصلت الباب حتى ردنى إليه فقال : أتدرى ما فى الرقعة ؟ قلت : لا . فنبذها إلىّ وقال : اقرأها . فقرأتها ؟ فإذا فيها : عجبت لقوم فيهم مثل هذا كيف ملّكوا غيره ؟ ! فاحتدمت غيظاً ، وصحت مرتجفاً : يا أمير المؤمنين، والله لو علمت ما فيها ما حملتها ! وإنما قال هذا ، لأنه لم ير أمير المؤمنين ! فضحك عبد الملك وقال: أتدرى لم كتبها ؟ قلت : لا . قال : حسدنى عليك فأراد أن يغرينى بقتلك ! ولكن خاب فأله ! فاذهب لا بأس عليك !

وقد نبل الشعبي فى عين عبد الملك وجلت مكانته ، فبالغ فى إكرامه وتقريبه منه ، حتى كان أول من يدخل إليه وآخر من يفارقه ! وصفوة القول : أن الشعبي فى دولة عبد الملك هو الأصمعى فى دولة الرشيد .

على الجندى

(١) التاج (٢) ثمرات الأوراق ج ـ ١

رأيي في الرجـــال

للكاتبة الانجليزية أرسولا بلوم
بقلم الآنسة الفاضلة « الزهرة »

إني أميل إلى الرجال وأختصهم بمودتي ، فوق ما أختص السيدات ، لأني — بعد استثناء حالات فردية قليلة — أجد أنهم يمتازون عنهن بالحصافة وبُعْد مَراد الفكر ، وصدق النزعة . كما أنهم أرحب منهن صدوراً ، وأبسط خليقة ، وأسجح عِطفاً ، وأسرعها فيئة ، وأقدر على رد عُرام المنصب ، واحتمال الإساءة .

وفي إمكانك أن تتشاجر مع رجل وتصارحه بما تراه فيه حقاً وتلمصه وتموّج فك عليه ، وبعد مضي عشر دقائق تعودان إلى مألوفكما من المصافاة والموالاة . ولكنك لا تستطيع شيئاً من ذلك مع سيدة ، لأنها تذكر على الدوام الملامَ الذي كالحتها به مرة ، وقد يندمل جرحها منه ويلتئم في الظاهر ، إلا أنه يلتحم على نَغَل ويلترق على غِبْرة ، ولأقلّ لمة يَرِف ويمجّ دماً .

والرجل يقول ما يقصد ويتمسك به . أما المرأة فلا تعرف على الدوام ما تقصد ، ولذلك لا تستطيع التزامه ، أو التمسك به . فقد تقول الأم لطفلها اللحاح : « لا يا حبيبي يجب ألاّ تمتطي غارب تلك الأرجوحة المعلقة فيما بعـد » . ولكنها لا تجد مفراً من الانصياع له ، والنزول على رغبته تحت ضغط تماديه في اللجاجة . فترافقه إلى الأرجوحة مرة أخرى . أما الأب فيقول : « إسمع ! دعنا من هذه الأرجوحة وتعال بنا نعود إلى البيت » .

وإنك لتعرف المسلك النهج الذي ترده ، والمشرع الواضح الذي تقصده مع الرجل ، ولكنك لا تعرف متوجهك مع المرأة ، لأنها هي نفسها ، لا تعرف لها متجهاً ظاهر النار . وإنك لتجد في الرجل رفيقاً صالحاً ، وصفياً ودوداً ، وخديناً مخالصاً . . . وإذا كنت في حاجة إلى مناصحته ، فإنك تلقى فيه مشيراً صادق الضمير ، يتحرى لك وجوه النصح ، وينصّب لك ما يهديك إلى عواقب أمرك ، ويبصرك مواقع رشدك ، ولا يشير عليك بما تعتقد أنه رأي الصواب الذي طوعته لك نفسك ، وحدثتك بالإقدام على فعله . أما المرأة فتدلس عليك الرأي مجاراة لك ، وإشباعاً لرغبتك في إنفاذه ، وإغراء لعزيمتك باتباعه ، ولا يخطر لها أن تشير عليك بما تعتقد أنه أحمد لك في العقبى ، وأنزم للأحوط من أمورك . وقد أرتدي قبعة جديدة ، وأتطلب رأي إحدى صويحباتي فتكره أن تزهدني فيها ، وتميلني عنها ، بعد أن شريتها . فتقول : « إنك تبدين فيها يا عزيزتي مدهشة فتانة ! » . وأسأل الرجل فيقول : « ما هذه القبعة ؟ أهي صندوق فحم مقلوب ... ! » .

ومن الغريب أنه لا يريد أن يحدج بسوء حين يجهر بهذا القول . وإني لشديدة الإعجاب بصدقه وإخلاصه في صراحته . لأني أعتقد يقيناً أنه بفطرته محمود الملابسة ، شهي المجاملة ، لا يعرف كيف يدامل أو يدامج !

وليس من شأن الرجل أن يغتاظ بمثل السهولة التي تنال من المرأة ، وتثير احتدامها ، فقد تستاء وتتكدر بل تستشيط غضباً إذا اعتقدتْ أن إحدى صويحباتها قد قلدت رسم ثوبها الجـديد وسبقتها إلى الظهور به ، أو أنها قد استمالت خادمتها القديمة النافعة ، أو أنها قد أخبرت صاحبتها فلانة أنك تتهم سلامة ذوقها في الأزهار التي يطالعك بها فناء حديقتها ! أما الرجل فلا يحفل شيئاً من هذا ، ولا يزعجه تنديدك بنظام مغروساته وأزهاره ، ما دام هو يحبّها ويتعهدها بما يلزمها من السقيا والري .

بيد أني أعتقد أن السيد « آدم » مزهوّ بذاته ، وأعرف أنني إذا كنت أبتني النجح لمطلب أقصده ، فليس عليّ إلا أن أثني على مهارته ثناء جماً ، وأمتدح اجتهاده وشهامته ، وأتغنى بمواهبه وحكمته ... وأعرف أن معدته هي نقطة الضعف فيه ... وأنه قل أن يوجد في الرجال مَنْ لا يستخفه طبق شهيّ مصنوع من « مايونيز الخبياري ، وجراد البحر (الجمبري) ... » .

وإنك لا تجد للرجل ضريباً في صدق صداقته ، وهذا سبب من أعظم الأسباب التي تحفزني على أن أمحض الرجل صافي ولائي .

وأعتقد كذلك أن الرجال في غضون عشر السنوات الأخيرة قد كيفوا ذواتهم تكييفاً معجباً ، وفاق ما استلزمته التغييرات والتطورات الحديثة . فقدمضوا إلى ميادين القتال ، وقارعوا في سبيلنا ، وجاهدوا جهاد الأبطال للذود عن أوطاننا ، ولاقوا الأهوال ، وأفنوا زهرة العمر في الخنادق الضيقة الملوثة بالجراثيم والأوبئة ، وواجهوا الموت في المغاور والمخابئ الصماء . ثم عادوا وماذا وجدوا ؟ وجدوا عالماً غريباً أُفرغ في قالب لا عهد لهم به من قبل . بل وجدوا عالماً جديداً ، احتلت فيه المرأة مقام السؤدد

ووجدوا أننا قد سلبناهم أعمالهم ووظائفهم ، إذ أطلقنا عقال

التقاليد، وعدنا غير ذلك الجنس اللطيف الضعيف؛ وأصبحنا الجنس القوي، الآخذ عليهم المهلة والأنف. ولو أن الأمر كان على العكس، فكانت المرأة هي التي عادت من الحرب، ووجدت كل هذا التطور، لما تأخرت لحظة عن اغتصاب السلطة من الرجل، ومحاربته ومناجزته، بذلك الأسلوب الجبار القاسي العنيف الذي تتوخاه في جميع منافحاتها ومقارعاتها ...

ولكن الرجل لم يفعل أيّ شيء من ذلك. بل جلس ساكناً وأخذ ينظر ويراقب سير الأمور. ولعله عرف أننا سنملّ هذا التغيير الجديد على توالي الوقت؛ ولعله كان حكيماً في ألمه وعنائه، وبما قاساه من خشونة العيش وضيقه في تلك الخنادق الوبيلة الضيقة فأبى أن يناوش ويداحل، واعتقد أنه وقف موقفاً نبيلاً تجاه جميع تلك التصرفات.

وإني لأجزم بأن الرجال مدهشون بوجه الإجمال: فهم أصدقاء خلصاء، ومحبّون كرماء، ومنافسون شرفاء، وهم السواعد اليمنى القوية التي تتمنى أن تتكيء عليها في أحايين، أوفر السيدات استحواذاً على الحرية، وأوفاهن استمتاعاً بنيل حقوق الأمة. وإنني لأوثر الجنس النشيط الخشن على الجنس اللطيف في جميع هذه الأحوال، لأننا لا نستطيع أن نكون من نظرائه وعدلائه في نبل شعوره ومناقبه العالية وصفاته النادرة التي تتجلى في ميادين المباريات والمنافسات. ولقد كشف لي ابني الحدث هذه الحقيقة الرائعة إذ كنت ألتهي معه بالمصارعة، وكان له الغلب عليّ في جميع الحلقات، من بدائيها إلى نهائيها؛ وإذ كنت سجينة بين ذراعيه لم أفتر عن منازلته. وإني لآسف أن أقول: إن غريزة نسوية وحشية قد طغت على إحساسي بقواعد الشرف المتفق عليها في المباريات والمصارعات، وجعلتني أنقضّ عليه في تلك اللحظة خلسةً، وأعضّه في محاذرة وتيقظ ... فراح ذراعه وتفرّس في وجهي مؤنباً وقال: «أواه منك يا امرأة!». وإن خير ما أعتقده في صفات الرجل ومميزاته هو هذا الذي بدر من ابني ... والذي يحملني على المجاهرة في غير مَيْن ولا تصدق بأن الرجل يجمل النزاهة رائده على الدوام في النزال والمصاولة ...

«الزهرة»



من مذكرات بلنت

صفحات مجهولة من حياة الامام محمد عبده

[بقية ما نشر فى العدد الماضى]

١٠ أغسطس سنة ١٩٠٣

كان الشيخ عبده قد نقل كتاب الفيلسوف هربرت سبنسر عن « التربية » من الفرنسية إلى العربية بلغة جزلة صحيحة ورأى بهذه المناسبة أن أقدمه إلى مؤلف الكتاب

فذهبت مع الشيخ عبده اليوم إلى بريتون لنزور سبنسر، وكنت قد كتبت إلى سبنسر فى ذلك الشأن وأنبأته بأمر هذه الزيارة، فأرسل عربته وسكرتيره مستر تروتون ليقابلنا فى محطة بريتون. ولما وصلنا إلى المنزل ألفينا الفيلسوف الشيخ طريح الفراش من شهر ابريل الماضى. ولم يكن المرض الذى انتابه قد أثر فى عقله بتاتاً، بل ظل ذهنه صافياً وصوته قوياً، ولكن يده كانت ناحلة تحول يد الهيكل العظمى. وقد استقبلنا وتناقصيراً قبل الغداء، ثم عاد فاستقبلنا فى الساعة الثالثة، وحاول فى بادئ الأمر أن يتكلم الفرنسية فتكلم ببطء وصعوبة. ثم عاد إلى الانجليزية، ورحت بدورى أترجم للشيخ عبده

نعى سبنسر على السياسة الحديثة اختفاء « الحق » منها، وتكلم عن حرب الترنسفال فنعتها بأنها وصمة فى جبين الإنسانية وقال: **لا شك أننا مقبلون على عصر « قوة » عصر تثار فيه الحروب من أجل السيطرة وتباح فيها جميع ضروب الوحشية**

وتناول فى جلسة الساعة الثالثة ظهراً حديث الفلسفة، وسأل المفتى عما إذا كان الفكر يتطور حقا فى الشرق إلى ناحية الغرب. فقال الشيخ عبده: الواقع أن الشرق يأخذ عن الغرب أسوأ ما فيه وإن كانا ما زالا مشتركين فى خير الأفكار وأرقاها.

وهنا قال سبنسر: لنذهب توا إلى صميم الموضوع. إننى أعتقد أن الفكرة عن القوة المحركة للوجود، هى ما تسميه « الله » وما نطلق عليه نحن « الرب » وهى متقاربة عندنا وعندكم. فأجاب المفتى بنظرية وجد سبنسر أنها جديدة طريفة. فقال الشيخ عبده: إننا نؤمن بأن الله « موجود » غير مشخص. فسر سبنسر من ذلك غير أنه لم يلبث أن أجاب: إن الفكرة صعبة الفهم، وزاد على ذلك: إنه من الواضح على كل حال أنكم من المتعمقين فى التفكير تعمقنا نحن معاشر الأوربيين

ومع الأسف لم يكن فى وسعنا أن نتمادى فى هذه الأبحاث الطريفة، فإن سبنسر لم يكن يسمح له باطالة الحديث بالنسبة لمرضه. غير أنى فى أثناء عودتنا إلى المحطة سألت المفتى سؤالاً دقيقاً: أتعتقد أن الله يعلم أنك موجود وأنى موجود، أو لا تعتقد أن هذا العلم هو شخصيته ؟

— إنه يعلم

— أو لا تعتقد أنه يعلم بالطيب والخبيث؟

— إنه يعلم

— وأنه يسر بالطيب ويستاء من الخبيث ؟

— أجل

ومن سوء الحظ أن الوقت لم يتسع لنناقش سبنسر ونقف على رأيه فى هذا الأمر، وإن أمكن أن نلمح بريقاً خاطفاً من تفكيره فى الموضوع

أما النساء اللواتى عرفتهن فى صحبته، فما زلن يلازمنه من سنوات أربع. وقد وقفت منهن على معلومات طريفة عن حياته الخاصة، وأكثرهن علاقة به امرأة صماء. وليس لديه صديق، ولم يزره أحد من شهر ابريل الماضى سوى ثلاثة أو أربعة أصدقاء، ولكن صحته بدأت تتحسن، وشرع يستعيد بعض نشاطه، وأمكنه أن يقضى الصيف قرب « تل ليف » وأن يخرج برفقتهن إلى نزهات خلوية، وكان يجد سروراً مضاعفاً من رؤية الزهور والطيور، وهو الآن يجالسهن ويلاعبهن الشطرنج والضامة.

وتعميماً للفائدة نثبت هنا ما كتبه الشيخ رشيد رضا فى تاريخه عن الإمام محمد عبده ومقابلته للفيلسوف سبنسر ليمكن القارنة بين ما سجله بلنت وبين ما دونه رشيد رضا:

« قلنا إنه فى سفره الأخير إلى إنجلترا عام ١٩٠٣ زار الفيلسوف سبنسر، وكان ذلك فى ١٠ أغسطس. **وكان الفيلسوف مصطافاً** فى برايتون من جنوب إنجلترا **وقد نهاه الأطباء** عن كثرة مقابلة الناس، وعن الحديث مع **أحد أكثر من عشر دقائق** لمرضه مع شيخوخته، ولكنه سر من حديث الأستاذ الإمام، ودعاه إلى

الغداء معه ، وأطال الحديث إليه فى فلسفة الدين والأخلاق والأفكار والمادية وسياسة أوربا

وإننى أذكر ملخص ما حدثنا به أستاذنا من ذلك وأرمز إلى سبنسر بحرف « ف » المقتطعة من « فيلسوف » وإلى شيخنا بحرف « م » المقتطعة من كلمة « إمام » :

ف — هل زرت إنجلترا قبل هذه المرة ؟

م — نعم زرتها منذ عشرين سنة

ف — كيف وجدت الفرق بين الإنجليز اليوم والإنجليز منذ عشرين سنة ؟

م — إننى زرت هذه البلاد فى المرة الأولى لغرض سياسى خاص هو البحث مع رجال السياسة فى مسألة مصر والسودان عقب الاحتلال البريطانى وأقمت أياماً قلائل لم يتعد عملى فيها ما جئت لأجله . وقد ألممت بها الآن منذ أيام فلم أدرس حالة الناس ، وإنما يجب أن آخذ عنكم ذلك

ف — إن الإنجليز يرجعون القهقرى فهم الآن دون ما كانوا عليه منذ عشرين سنة

م — فيم هذه القهقرى وما سببها ؟

ف — يرجعون القهقرى فى الأخلاق والفضيلة ، وبين تقدم الأفكار المادية التى أفسدت أخلاق اللاتين قبلنا ، ثم سرت إلينا عدواها ، فهى تفسد أخلاق قومنا وهكذا سائر شعوب أوربا

م — الرجاء فى حكمة أمثالكم من الحكماء واجتهادهم أن ينصروا الحق والفضيلة على الأخلاق المادية

ف — إنه لا أمل لى فى ذلك لأن هذا التيار المادى لا بد أن يأخذ مداه وغاية حده فى أوربا . إن الحق عند أهل أوربا هو الآن للقوة

م — هكذا يعتقد الشرقيون ، ومظاهر القوة هى التى حملت الشرقيين على تقليد الأوربيين فيما لا يفيد من غير تدقيق فى معرفة منابعها .

ف — محى الحق من عقول أهل أوربا بالمرة ، وسترى الأمم يختبط بعضها ببعض ليتبين أيها الأقوى ليسود العالم أو يكون سلطان العالم

ثم انتقلا إلى الكلام فى الفلسفة الإلهية

ف — ما يقول علماء الإسلام فى الخالق ، هل هو داخل العالم أو خارجه ؟

م — إن علماء الأثر يقولون إن الله تعالى فوق كل شىء بائن من العالم ، والمتكلمين يقولون : إنه لا داخل العالم ولا خارجه ، والصوفية القائلين بوحدة الوجود يقولون : إن كل شىء فى العالم مظهر من مظاهر وجوده ، وذكر له ملخص مذهبهم .

نوفمبر ١٩٠٣

انتهز الشيخ عبده فرصة قدومه إلى انجلترا فزار جامعة اكسفورد واستقبل استقبالاً حافلاً من أساتذتها خصوصاً المستشرق براون الذى أقام له حفلة تكريم شهدها أساتذة الكلية . ولدى تفقد الشيخ عبده القسم الشرقى من مكتبة الجامعة عثر على مخطوطات عربية نادرة ، أكثرها معروف بالاسم فقط لدى رجال الأزهر ؛ واهتم اهتماماً زائداً بمخطوط لأحد فلاسفة العرب « السباعى El Sebaïn » ، فيه رسائل إلى فردريك الكبير ، وقد ذكر الشيخ عبده أنه سوف يكلف إدارة الأوقاف بنسخ المخطوط

وتناول الشيخ عبده فى حديثه معى زيارته لتونس والجزائر وشرح سوء حالهما بالمقارنة بينهما وبين مصر ، ووصف تلك المقارنة بأنها كالفرق بين الظلام والنور . ثم عرجنا فى الحديث على موقف الخديو فقال الشيخ عبده : إن الخديو جشع يعمل كل شىء فى سبيل جمع المال ، وإنه يريد أن يستبدل ببعض ما يملك أطياناً وعقاراً كلها وقف . ثم إن الخديو يتم ظاهره عن صداقته ، ولكنه يعمل فى الباطن لإقصائه عن وظيفة الافتاء

١٧ يناير سنة ١٩٠٤

أفضى إلىّ المفتى بأنه كان فى الأسكندرية وقابل الخديو ، وهو كعادته معه ، له مقابلة حسنة ، ومقابلة سيئة . ظاهره ضحك وباطنه دسائس وانتقام . ويقول إن الخديو متضايق منه بسبب الفتاوى الثلاث التى أجاب بها عن أسئلة مسلمى الترنسفال وهى :

١ — هل للمسلم المقيم فى بلاد أجنبية أن يأكل لحماً لم يذبح على الطريقة الإسلامية ؟

٢ — هل للمسلم المقيم فى بلاد أوربية أن يلبس القبعة ؟

٣ — هل للشافعى أن يقف فى صف واحد مع الحنفى فى الصلاة ؟

وقد أجاب المفتى بما يرضى ضميره . ولكن الخديو اعتبر ذلك كفراً . مع أنه هو نفسه يأكل ويلبس القبعة ، ولا يقيم الصلاة فى البلاد الأجنبية . على أن كرومر فى جانب المفتى ، وذلك ما يوجب الدهشة !

٢٢ يناير سنة ١٩٠٤

تغدى المفتى معنا فى الحديقة ، تحت شجر القاب الإفرنجى ، وهو متألم لوفاة عالم من علماء الأزهر وخصوصاً أن الخديو مصمم على أن يحدث متاعب لخلفه . وعند ما نتكلم على الخديو ينعته بقوله : « رجلنا الصغير » !

ومن أحاديثه : أن الخديو منهمك الآن فى الأعمال المالية ، والتجارية ، إلى حد أن كرومر خيره بين أن يظل خديوياً محترماً وبين أن يكون تاجراً محترفاً . وهذا حق ، وخصوصاً أن بعض أفراد أسرة محمد على يحبون المال حباً جماً .

١٣ ابريل سنة ١٩٠٥

فى حديث اليوم مع الشيخ عبده تفضل وأخبرنا بقصة طريفة لا بأس من إيرادها : فى أثناء نفيه إلى بيروت عام ١٨٨٣ ، حدث أن كان قسيس مقيما فى انجلترا اسمه اسحق تيلور يقوم بدعاية واسعة النطاق الغرض منها توحيد الإسلام والنصرانية على أساس فكرة التوحيد الموجودة فى الإسلام والشائعة عند الكنيسة الإنجليكية . وكان هناك شخص إيرانى من أتباعه اسمه ميرزا بكر يشايعه فى فكرته . وقد تمكن من التأثير فى الشيخ عبده ، وفى طائفة من علماء دمشق ، فكتبوا إلى القس تيلور فى الموضوع . وما إن وصل الكتاب إلى القس حتى فرح به ونشره مستعيناً به على صحة دعواه ، إلا أن السلطان عبد الحميد كلف سفيره فى لندن أن يستقصى حقيقة الموضوع ويقف على أسماء موقعى الكتاب ، فقابل القس وحصل منه على هذه الأسماء ؛ وقد أحاق بهؤلاء العلماء فيما بعد عذاب أليم وقرر السلطان إبعادهم عن الديار السورية . . . ويقول الشيخ عبده إن السر فى غضب السلطان أنه خشى أن يعتنق الإنجليز الإسلام ، ثم يطلبوا أن يكونوا أصحاب الدولة فى الإسلام وتكون الملكة فيكتوريا ملكة المسلمين ... ويذهب السلطان من السلطان ... وسبحان مدبر العقول

١٩ فبراير سنة ١٩٠٥

عاد الشيخ عبده من السودان وأطلعنى على تفاصيل زيارته وأنه مغتبط بما رآه وشاهده ، فالحكومة هناك أحسن إدارة منها فى مصر ، والأهالى قانعون حتى عن مسألة النخاسة ، والدراسة فى كلية غردون على أساس معقول موافق

وعنده أن قانون العقوبات السودانى أسهل وأحسن من القانون المصرى ، وأن السردار يحكم بالعدل ويسود بالحكمة واللين ، وأن هناك شعوراً حسناً متبادلاً بين الإنجليز والسودانيين

١٧ مارس ١٩٠٥

ودعت الشيخ عبده هذا الصباح . ويلوح لى أن هذا السفر إلى الأبد فلا عودة منه . على أن المكان ـ عين شمس ـ حبيب إلى نفسى لشمسه المتألقة وسمائه الصافية وما يكتنفه من خضرة وطير . فيا إلهى ! من ذا الذى يرعى ذلك كله إذا ما ذهبت ؟

وحضر الشيخ عبده إلى المحطة يودعنى وبقينا نتحدث طول الوقت إلى آخر لحظة تحرك فيها القطار . وكان وداعاً مؤثراً حزيناً لأن شعورى أوحى إلىّ بأنى سوف لا أراه بعد ذلك

٨ يوليه ١٩٠٥

إن الحادث الذى هز عواطفى هو حادث وفاة الشيخ عبده . فإن ذلك من أفدح النكبات التى صادفتها فى حياتى . كذلك موته خسارة جسيمة للعالم الإسلامى . وإنه ليداخلنى الريب فى كيفية موته، فربما كان موتاً غير طبيعى، وإن له خصوماً سياسيين كثيرين

١٥ يوليه ١٩٠٦

قدم مصطفى كامل باشا إلى لندن وجرت بيننا مقابلة طويلة استعرضنا فيها موقف الخديو والأحوال الدولية وسياسة الاحتلال البريطانى والغازى مختار . . . ثم انتقلنا إلى الحديث عن المرحوم الشيخ عبده فذكره مصطفى كامل بتحفظ وأخذ عليه تمسكه بمنصبه الرسمى على رغم تحقير الخديو له. وهو لو احتفظ بكرامته وترك المنصب لجعلناه إماما فى الحرية والوطنية ، ثم تناول حادث وفاته وقال إنه كان بداء السرطان كما أخبره طبيبه قبل موت الشيخ بثلاثة شهور

محمد أمين حسونة

التاريخ فى سير أبطاله

أحمد عرابى

أما آن للتاريخ أن ينصف هذا المصرى الفلاح وأن يحدد له مكانه بين قواد حركتنا القومية ؟

للأستاذ محمود الخفيف



ذكرنا أنه كان من نتائج تلك المذكرة المشئومة اتحاد الوطنيين والعسكريين ، ونذكر الآن أن عرابياً مالبث يوماً أن عاد فى نظر الجميع الرجل الذى يجب أن يحرصوا على معونته ، وتأهب عرابى ليأخذ دور الزعيم من جديد وقد كانت الزعامة تتزايل فى نظر الناس عن شريف

ولقد أحس مالت بما كان للمذكرة من أثر فى عودة عرابى إلى طليعة الصفوف فأوفد إليه فى مكتبه بوزارة الحربيـة صديقه بلنت ، وكان عرابي قد عين وكيلاً لهذه الوزارة كما بينا ؛ وكان مالت يطمع فى أن يكسب عرابياً إلى جانبه، أو على الأقل كان يتمنى أن يهدئ خاطره لعله بما يكون لمثل هذا العمل من عظيم الأثر فى ذلك الموقف العصيب الذى سببته رعونة غمبتا وصاحبه

يقول بلنت : وقد ذهبت إلى ثكنة قصر النيل فى ظهر يوم ٩ وكانت المذكرة قد وصلت فى يوم ٨ فوجدت عرابياً وحده فى مكتبه، وهذه هى المرة الأولى والأخيرة التى رأيته فيها غاضباً ، وكان وجهه كسحابة الرعد ، وكان فى عينه بريق خاص ؛ وكان قد رأى نص المذكرة وإن كان لم ينشر بعد ، وقد سألته كيف فهمها فقال : أخبرني كيف تفهمها أنت ؟ وحينئذ أديت رسالتى فقال : لاشك فى أن السير إدوارد ماليت يحسبنا أطفالاً لا نفهم معنى الكلمات . هذه لغة تحد وتهديد وليس فى هذه الإدارة كاتب يستخدم هذه الألفاظ لغير هذا المعنى . ثم أشار إلى الفقرة الأولى التى ذكر فيها الأعيان وقال : هذا تحد لحريتنا وليس لإعلان اتحاد فرنسا وإنجلترة معنى إلا أن انجلترة ستغزو مصر كما غزت فرنسا تونس ... ثم قال : دعهم يأتون فكل رجل وطفل فى مصر سيقاتلهم . ليس من مبادئنا أن نضرب الضربة الأولى ولكننا سنعرف كيف نردها. ثم قال فيما يختص بالمحافظة على عرش توفيق : « إن السلطان هو الذى يحافظ على عرش توفيق فليس فى حاجة إلى ضمان أجنبى . ولك أن تخبرنى بما تشاء ولكنى أعرف معنى الكلمات أحسن مما يعرف ماليت ...

والواقع أن تفسير مالت كان هراء فى هراء ، وقد شعرت لما صرت أمام عرابى بعقلى ، وخجلت من حملى إليه مثل هذا الهراء ، ولكنى أكدت له أنى أديت الرسالة كما ألقاها إلى السير ادوارد ثم قلت : وهو يرجوك أن تصدقها وأنا كذلك » .

هذا هو كلام بلنت ، ومنه نتبين مبلغ غضب عرابى لهذه المذكرة كما نفهم جانباً مما كان يجيش فى نفس هذا الزعيم الثائر ، فهولن يجبن ولكنه لن يبدأ بالعدوان ، وهو بعد ذلك يلمح نيات انجلترة من هذه المذكرة كما يفعل السياسى البعيد النظر إذ يقرأ بين السطور كما يقولون . وما كان عرابى مبالغاً فى تصور نيات الإنجليز فلسوف نرى أن جرانفيل كان فى ذلك الوقت قد وطد العزم على التدخل بالقوة !

عاد عرابى إلى الميدان . وفى الناس من تبلغ بهم الغفلة إلى حد أن يأخذوا عليه هذه العودة ؛ وفيهم من يذهب بهم اتباع الهوى إلى أن يجعلوا ذلك من أكبر خطيئاته قائلين فى مثل منطق البلهاء إن كان ثمت للبلهاء من منطق ، إنه بعودته هذه قد ساق البلاد إلى ما سيقت إليه من دمار .

ومن المؤلم المثير حقاً أن يقول هؤلاء الناس هذا الكلام دون أن ينظروا فى موقف الخديو وموقف الإنجليز على نحو ما بينا ، وهم لا يفهمون من المسألة كلها إلا ما شاع من أن عرابيا كان رجلاً ذا أطماع لا يدرى ماذا يفعل ؛ فكانت إذا هدأت البلاد لا يفتأ يعمل بنزقه على إثارتها ليصل إلى تحقيق أطماعه .

وأحسب الآن بعد الذى رأينا من موقف أعدائه أن هذا الكلام قد أصبح خليقاً بأن يخجل منه قائلوه . وإنا لنكاد نقطع منذ الآن أنهم — بعد أن نفرغ من سيرة هذا الرجل المظلوم على النحو الذى نسير عليه — لن يعودوا إلى مثل هذا الكلام أبداً ، وسبيلنا فى إقناعهم الحجة التى نستخلصها من الحوادث فى عدالة يوجبها الحق ، وفى عطف يتطلبه الإنصاف .

تعهد عرابى ألا يتدخل فى شؤون الحكومة ، فكان إذعانه لهذا الطلب أمراً لا بد منه . ولو أنه رفضه لكان فى ذلك مخطئاً أشد الخطأ ، ولكن عرابياً لم يتعهد أن يدع وطنه وشأنه لا تهزه بعد يوم عابدين نحوه عاطفة أو يحركه لنجدته ما عساه أن يلم بقضيته من الأحداث . ولم يكن ليستطيع عرابى أن يتعهد بمثل هذا التعهد ولن يستطيع ذلك غير عرابى من الناس ، ولو أنه فعل ذلك لأجرم فى حق هذا الوطن جريمة ما كان ليغفرها له التاريخ ... وكيف يفعل ذلك عرابى أو أى رجل غيره ولا يكون بذلك مجرماً مفرطاً فى جنب وطنه ؟ وأى فرق بين مثل هذا التعهد وبين المروق والخيانة والجحود فى أوضح صورها وأقبحها ؟

ألا إنه الحق كل الحق أن يطلب إلى بنى الوطن ألا يتدخلوا فى أعمال الحكومة ، ولكن على شرط ألا يكون من تلك الأعمال نفسها ما يحفز الناس إلى التدخل أو يوجبه عليهم . أما أن تفرط الحكومات فى حق الوطن، وأما أن توضع العقبات فى سبيل قضيته ثم يطلب إلى الناس بعد ذلك أن يدعوا الحكومة وشأنها فهذا هو الباطل بأجلى معانيه وأشدها فجوراً ، ومن أطاع ذلك من الناس فقد أجرم فى حق بلاده وضل ضلالاً بعيداً

لن يكون لقيام الحكومات من مبرر إلا العمل لخير المحكومين وصلاح أمرهم. على هذا الأساس ولدت الديمقراطية، وبهذا المبدأ اقترنت الحرية ؛ ولكم نادى بذلك القادة ودعاة الإنسانية فى الغرب منذ هدموا صروح الظلم وحطموا أغلال الماضى وفصموا سلاسل الرجعية . وما لنا نستشهد بالغرب وهذه الحكومة الإسلامية الأولى التى قامت فى الصحراء قد جعلت تلك المبادئ أساس قيامها ، فما أروع وأجمل أن يقول الخليفة الأول للناس : « أيها الناس إنى وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينونى وإن حرفت فقومونى » وأن يقول لهم الخليفة الثانى : « من رأى منكم فى اعوجاجاً فليقومه » فيرد عليه أعرابى من أوزاع الناس بقوله : « لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا » وما أملى على أبى بكر وعمر هذه المعانى السامية وما أمدهما بتلك السياسة العالية إلا ما ألهماه من روح تلك الشريعة السمحة ، شريعة دينهما التى تقدم بهذا أحد براهينها على أنها شريعة الفطرة ، فما كانت الحرية فى شتى مظاهرها إلا بنت الفطرة ... وأبلغ وأروع من قول أبى بكر وعمر قول الرسول الكريم : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده »

قبل عرابى أن يدع الحكومة وشأنها على أن تجرى الأمور وفق ما وضعته الثورة من مبادئ ، فكيف لعمر الحق كان يستطيع أن يحمل على السكوت نفسه وقد رأى من الدسائس الأثيمة التى تحاك حول تلك الحرية الوليدة ما أغضب أكثر الناس اعتدالاً وأقلهم علاقة بالسياسة وشؤونها ؟

إذاً فالفرق كبير بين أن يتدخل عرابى فى شؤون الحكومة وبين أن يغضب لما حل بقضية وطنه ، وفى هذا الغضب دليل وطنيته ووطنية كل غاضب معه . ولقد كان من أصعب الأمور على هذا الرجل أن يدع هذه القضية وشأنها ، بل لقد كان ذلك مستحيلاً عليه ؛ وإنى لأرجو من الذين خاصموا هذا الرجل فى غير حق بعد أن أصبح فى ذمة التاريخ أن يستمعوا إلى هذا الرأى الذى أسوقه عنه ، ألا وهو أن الحرية كانت من طبعه لم يتكلفها يوماً ولم توجهه إليها الحوادث وهو يجهل كنهها كما يقول الذين أرادوا ألا يدعوا له محمدة إلا جعلوها بالباطل مذمة

كانت الحرية من طبع ذلك الجاويش الذى نقم على الجراكسة فى الجيش استبدادهم فأكثر من الشغب عليهم . وكانت الحرية من طبع ذلك الضابط الذى اختاره زملاؤه ليحمل عريضتهم إلى رياض . وكانت الحرية هى التى دفعت هذا الرجل إلى أن يقف

ذلك الموقف الفذ عصر ذلك اليوم المشهود فى ساحة عابدين ، ولسوف تكون الحرية هى الحافز له إلى وثبات أخرى ...

ولقد استوثق مستر بلنت من ذلك عند ما سعى إلى عرابى يطلب مودته قال : « وكانت غرفته الخارجية بل كان الشارع الموصل إلى المنزل يمتلئ كل يوم بجماعة الشاكين . وكان قد اتصل به نبأ عطفى على الحركة ورغبتى فى مساعدة الفلاح فاستقبلنى بأسمى مظاهر المودة لهذا السبب ، وللصلة التى تربط أسرتى باللورد بيرون الذى كان عرابى وإن لم يعرف شيئاً من شعره يمجده لدفاعه عن حرية اليونانيين »

وكيف كان يمجد هذا الفلاح اللورد بيرون نصير الحرية إلا أن يكون هذا تجاوباً بين نفس حرة وأختها ؟ ولقد كان بيرون يدافع عن اليونانيين لا عن المصريين ، فلم يكن حب عرابى إياه إذاً مشوباً بعاطفة غير عاطفة حب الحرية أينما كانت وكيفما كانت جنسية الداعين إليها وكيفما كان دينهم

ولنعد إلى خطبته التى ألقاها فى محطة مصر . لقد أفصح فيها وهو يرتجلها عن كثير مما تنطوى عليه نفسه . والخطيب فى مثل ذلك الموقف الحماسى ينسى نفسه فلا يملك التكلف والتصنع لأنه ليس به حاجة إلى ذلك ، بل لقد يكشف الخطيب عما يريد أن يغطيه إذا نسى نفسه فى رهبة الموقف وحماسته دون أن يملك لذلك دفعاً . قال عرابى : « البلاد محتاجة إلينا وأمامنا عقبات يجب أن نقطعها بالحزم والثبات وإلا ضاعت مبادئنا ووقعنا فى شرك الاستبداد بعد التخلص منه » وقال : « وقد فتحنا باب الحرية فى الشرق ليقتدى بنا من يطلبها من إخواننا الشرقيين على شرط أن يلزم الهدوء والسكينة ... »

وإنا لنرى فى ذلك الكلام من الأدلة على أن عرابياً كان يتحرك بدافع من حبه للحرية ما لا تجدى معه مكابرة ؛ وعلى ذلك نتساءل : ألم يأن للناس أن ينصفوا هذا الرجل وقد قضى عليه أعداؤه ثم قضوا بعد ذلك على تاريخه الحق ؟

ألم يأن لأبناء هذا الوطن وقد فرغوا من قضية استقلاله وحريته أن ينظروا إلى هذا الرجل نظرتهم إلى زعيم جاهد فى الوطن حق جهاده ، وأن يكفوا عن تلك النظرة الظالمة التى تصوره رئيس عصابة من الأوزاع والهمج يسيرون على غير نهج ولا يبتغون من وراء سيرهم غاية ؟

ألم يأن لأبناء هذا الوطن أن يفطنوا إلى أن الاحتلال هو الذى صور عرابياً هذه الصورة المنكرة ليبرز بذلك فعلته ، وأنهم بمجاراتهم الاحتلال وصنائعه إلى يومنا هذا فيما ادعوا إنما يثبتون على أنفسهم الغفلة ويسيئون إلى رجل ما فكر يوماً فى الإساءة إلى وطنه ؟ رجل إن كثرت أخطاؤه فقد حسنت نياته ، وإن فاته النجاح فقد عظم فى سبيل النجاح بلاؤه . ولقد قل فى المحنة نصراؤه ، وتعدد غداة الروع أعداؤه

لا جناح على عرابى أن يعود إلى ميدان النضال فى سبيل المبادئ التى اعتنقها المصريون ووطدوا العزم على تحقيقها . ولو أنه وقف فى جهاده عند وثبته الجريئة يوم عابدين لحق عليه ما نسبه إليه خصومه من النزق والسير على غير هدى ، ولكن هؤلاء الخصوم يلومونه على عودته إلى العمل قائلين لقد أجيبت مطالب الجند على نحو ما كان يرجو عرابى نفسه ، وهم فى هذا ما يجهلون حقيقة الثورة العرابية وآمال الرجل الذى نسبت إليه تلك الثورة وأغراضه ، وإنما يعلمون ذلك ولكنهم يمارون فيما يعلمون ، ولكنهم فى الحالين ملومون فلن يقبل منهم جهلهم ولن يقرهم أحد على ممارتهم ومكرهم

وسيعود عرابى إلى الجهاد فيقف فى وجه الدولتين الطامعتين . وسيسير زعيم الثورة على رأس جيش من أبناء هذا الوادى ليذود عنه فى بسالة جريئة وحفاظ مرٍّ وفق ما توجبه الوطنية والرجولة . وهذا فى الحق هو كل ما يطلب منه فى مثل تلك الظروف ؛ أما الفوز فأمر قد يخرج عن تصريفه ، وسبيله إليه محدود بحدود طبيعته ومقدرته . ولقد يتوافر للقائد من أسباب الفوز ما يكاد يعتقد أنه قبل وقوعه حقيقة لا سبيل إلى الريبة فيها ، ثم ينظر فإذا تلك الحقيقة خيال أو دون الخيال . ولئن أخطأ قائد فلن تحمل أخطاؤه على معنى آخر ، كما حملت أخطاء عرابى ظلماً وعدواناً على معانى الخيانة والمطامع الشخصية

« يتبع » **الخفيف**

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٤٣٨ — بلغ الأمانة فهي في حلقومه

قال أبو الحسن البغدادي الفكيك في نقيب بغداد وكانت في عنقه غدة[(١)] :

بلغ الأمانة فهي في حُلقومه   لا ترتقي صُعداً ولا تتنزّلُ

٤٣٩ — هذا لا يرسخ إلا في قلب مؤمن

في الأغاني : المدائني : شهد رجل عند قاض بشهادة . فقيل له : من يعرفك ؟ قال : ابن أبي عتيق . فبعث إليه يسأله عنه . فقال : عدلٌ رضًى . فقيل له : أكنت تعرفه قبل اليوم ؟ قال : لا . ولكني سمعته ينشد :

إن الذين غدوا بلبّك غادروا   وشلا بعينك لا يزال مَعينا

غيضن من عبراتهن وقلن لي :   ماذا لقيت من الهوى ولقينا[(٢)]

فعلمت أن هذا لا يرسخ إلا في قلب مؤمن فشهدت له بالعدالة

٤٤٠ — ما أعظم الله !

في (طبقات الشافعية) منع الشيخ أبو حيان أن يقال : ما أعظم الله ، وما أحلم الله ، ونحو ذلك . ونقل هذا عن أبي الحسن ابن عصفور احتجاجاً بأن معناه شيء عظمه أو حلمه ، وجوزه الإمام الوالد (تقي الدين السبكي) محتجاً بقوله تعالى (أبصر به واسمع) والضمير في به عائد على الله ، أي ما أبصره وأسمعه ، فدل على جواز التعجب في ذلك . وفي شرح ألفية ابن معطي لمحمد بن الياس النحوي : سأل الزجاج المبرد فقال : كيف تقول ما أحلم الله وما أعظم الله ؟ فقال : كما قلت . فقال الزجاج : وهل يكون شيء حلّم الله أو عظّمه ؟ فقال المبرد : إن هذا الكلام يقال عندما يظهر من اتصافه (تعالى) بالحلم والعظمة ، وعند الشيء يصادف من فضله ، والمتعجب هو الذاكر له بالحلم عند رؤيته إياها (أي الصفة) عياناً . وذكر الوالد أنه يعني بالشيء نفسه أي أنه عظم نفسه ، أو أنه عظيم بنفسه لا شيء جعله عظيما .

٤٤١ — خير لعمرك منه خص عامر

الحسن بن علي الأسواني :

فدع التمدح بالقديم فكم عفا   في هذه الآكام قصرٌ دائرُ[(١)]

إيوان كسرى اليوم عند خرابه   خير (لعمرك) منه خصٌّ عامر

٤٤٢ — تحاسد الأكفاء

قيل لبعضهم : ما الذي أذهب ملككم ؟ قال : تحاسد الأكفاء ، وانقطاع الأخبار ! !

٤٤٣ — هذه والله مكارم الأخلاق

في (الآداب الشرعية والمنح المرعية) : كان بين سعيد بن العاص وقوم من أهل المدينة منازعة ، فلما ولاه معاوية المدينة ترك المنازعة ، وقال : لا أنتصر لنفسي وأنا وال عليهم .

قال ابن عقيل في (الفنون) : هذه (والله) مكارم الأخلاق

٤٤٤ — كأنها طبخت بنار شوقي إليك

في (ثمار القلوب في المضاف والمنسوب) للثعالبي : نار الشوق مذكورة على الاستعارة ، وكذلك نار الوجد ، ونار اللوعة ، ونار الغرام ؛ وما أشبهها . وقد أكثر الناس فيها نظماً ونثراً . قال أحمد بن طاهر يهجو المبرّد :

ويوم كنار الشوق في قلب عاشق   على أنه منها أحرُّ وأوقدُ

ظللت به عند المبرّد قائظاً   فما زلت في ألفاظه أتبردُ[(٢)]

وقال لي السيد أبو جعفر الموسوي يوماً وأنا معه على المائدة — وقد قدِّم لي لون في غاية الحرارة — : كأنها طبخت بنار شوقي إليك .

---

(١) الغدة والغددة : كل عقدة في جسد الانسان أطاف بها شحم ، والغدة طاعون الابل وقلما تسلم منه (اللسان) وقد أغد البعير فهو مغد ويستعار فيقال : أغد الرجل إذا انتفخ من الغضب (الأساس)

(٢) قال عبد المطلب بن عبد العزيز : أنشدت أبا السائب قول جرير (غيضن) . فقال : يا ابن أخي ، أتدري ما التغييض ؟ قلت : لا . قال : هكذا وأشار بإصبعه إلى جفنه كأنه يأخذ الدمع ثم ينضحه

(١) الأكمة : التل

(٢) من قول شيخ شيوخ حماة في التورية :

وبلاه من نوى الشرد وآه من شملى البدد

يا (كامل) الحسن ليس يطفى ناري سوى ريقك (المبرد)

٤٤٥ — بعثه داعياً لا جابياً ...

في (الطبقات) لابن سعد: إن حيان بن شريح عامل عمر ابن عبد العزيز على مصر كتب إليه: إن أهل الذمة قد أسرعوا في الإسلام، وكسروا الجزية.

فكتب إليه عمر: «... أما بعد. فإن الله بعث محمداً داعياً، ولم يبعثه جابياً. فإذا أتاك كتابي هذا، فإن كان أهل الذمة أسرعوا في الإسلام وكسروا الجزية — فاطو كتابك، وأقبل.

٤٤٦ — ... فاعلم أنه طلل

في (إعجاز القرآن) للباقلاني: سمعت الصاحب بن عباد يقول: أنشد بعض الشعراء — من أهل زنجان(١) — هلالَ بن زيد قصيدة على وزن قصيدة الأعشى:

ودع هريرة إن الركب مرتحل ... وهل تطيق وداعاً أيها الرجل؟

وكان وصف فيها الطلل، فقال هلال بديها:

إذا سمعت فتى يبكي على طلل ... من أهل زنجان فاعلم أنه طلل ...

٤٤٧ — شطحات ...

في (ميزان الاعتدال): نقل عن أبي زيد البسطامي:

سبحاني ...

ما في الجبّة إلا الله ...

ما النار؟ لأستندنّ إليها غداً. وأقول: اجعلني لأهلها فداء أو لأبلُعَنها ...

ما الجنة؟ لعبة صبيان ...

هب لي هؤلاء اليهود. ما هؤلاء حتى تعذبهم ...

٤٤٨ — يلام الصديق إذا ما احتفل

ابن القبطرنة:

دعاك خليلك واليوم طلّ ... وعارض وجه الثرى قد بقل(٢)!

لقدرين فاحا وشمّامة ... وإبريق راح ونعم المحلّ(١)!

ولو شاء زاد ولكنه ... يلام الصديق إذا ما احتفل(٢)

٤٤٩ — قتيلنا لا يودى وأسيرنا لا يفدى

في (العقد) قال مسلم بن عبدالله بن جندب: دخلت أنا وزبان السواق العقيق، فلقينا نسوة نازلات من العقيق، لهن جمال وشارة، وفيهن جارية خضابية العينين. فلما رآها زبان قال لي: يا ابن الكرام، دمُ أبيك (والله) في ثيابها، فلا تطلب أثراً بعد عين، وأنشد قول أبي مسلم بن جندب:

ألا يا عبادَ الله، هذا أخوكم ... قتيل، فهل منكم له اليوم ثائر

خذوا بدمي إن متّ كلّ مليحة ... مريضة جفن العين والطرف ساحر

قال مسلم: فقالت لي الجارية: أنت ابن جندب؟ قلت: نعم. قالت: فاغتنم نفسك، واحتسب(٣) أباك، فإن قتيلنا لا يودى(٤)، وأسيرنا لا يفدى(٥).

(١) زنجان مدينة في أذربيجان (القاموس) والعجم يقولون زنكان بالكاف (معجم البلدان)

(٢) يوم طل: رطب طيب (الأساس) (العارض) صفحة الخد، والعارضان للانسان صفحتا خديه (بقل) بقل وجه الغلام خرج شعره: أي طلع نبت الأرض

(١) (الشمامة) واحدة الشمام: ضرب من البطيخ (الابريق) إناء مثل الكوز أو هو الكوز وفي (الكتاب): يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق. وقال عدي بن زيد:

ودعوا بالصبوح يوماً فجاءت ... قينة في يمينها إبريق

(المحل وطل) في البيت الأول، في هذا المقام تسكن لامهما ولا تشدد لأن التشديد مخل بالوزن.

(٢) (احتفل): اجتهد، وبالغ. وفي الأساس: احتفل في الأمر إذا احتشد واجتهد.

(٣) احتسبه أي اعتد مصيبته به في جملة البلايا التي يثاب بالصبر عليها (النهاية)

(٤) لا يودى: لا تؤدى ديته: يذهب دمه هدراً ...

(٥) مروان بن أبي حفصة:

إن الغواني طالما قتلننا ... بعيونهن ولا يدين قتيلا

إلا أكن ممن قتلن فانني ... ممن تركن فؤاده مخبولا



هذا هو المشروب
المفضل فى
فصل الصيف
الشاى
المثلج
مشروب منعش مرطب
طريقة عمله جهز شايا ثقيلاً ثم اسكبه على
مسحوق الثلج واضف اليه السكر
والليمون او اللبن حسبما
يلائم ذوقك
الشاى الجيد وارد الهند
وسيلان وجاوه وسومطرا
اشربوا
الشاى المثلج



حول مقال

ماهى الحيـــاة ؟

للأستاذ عبد الله عشرى الصديق

سيدى الأستاذ الجليل صاحب الرسالة :

قرأت فى العدد ٣٠٠ من « الرسالة » الغراء مقالاً للأستاذ نصيف المنقبادى فى موضوع « ماهى الحياة » قابل فيه الكاتب الفاضل بين أظهر خواص الكائنات الحيّة وما يماثلها فى عالم الجماد ، وخرج من تلك المقابلة « بأنه لا يوجد فرق جوهرى بين هذين العالمين » والحقيقة التى لا تقبل الشك هى أن هذا الفرق (الجوهرى) بين الأجسام الحية وبين الجمادات موجود بصورة واضحة فى كل واحدة من تلك الخواص التى أوردها الأستاذ فى مقاله. وثمة فرق جوهرى آخر يعلق عليه علماء البيولوجيا أهمية كبرى فى تفهم ماهية الحياة . وسنعمد فى هذه العجالة إلى إثبات وجود هذه الفروق متوخين فى ذلك الفائدة العامة وخدمة الحقيقة والعلم

الشكل النوعى

يفهم مما جاء فى مقال الأستاذ تحت هذا الباب أنه إنما يعنى «بالشكل النوعى» الصورة الخارجية للجسم حيًّا كان أو جماداً ؛ فهو يحدثنا عن أشكال البلورات الهندسية وكيف أن هذه ثابتة فى النوع الواحد تماماً كما هو الحال مع الحيوان حيث « تقترب أشكالها باقتراب أنواعها » وكل هذا صحيح لا غبار عليه إذا كان المقصود بالشكل النوعى هو الصورة الخارجية دون ما اعتبار للحجم . والذى نعرفه ويقره العلم الحديث هو أن الشكل النوعى يشمل زيادة على الصورة الخارجية الصفة الأخيرة التى ذكرناها وفيها تختلف الكائنات الحية عن الجمادات اختلافاً ظاهراً .

فالمعروف لدى كل إنسان هو أن للأحياء (المعاصرة على الأقل) أحجاماً ثابتة تختلف باختلاف أنواعها إلى حد ما . فالنملة مثلاً لا يمكن أن تكبر حتى تصبح فى حجم الفيل ؛ ولا يمكن لشجيرة القطن أن تنمو حتى تبلغ حجم شجرة السرو أو السنديانة، كما أننا لم نسمع قط بآدمي بلغ طوله ثلاثة أمتار(1) . أما الجمادات فإننا لا نعرف لها أحجاماً ثابتة؛ فبلورة ملح الطعام قد تكون فى حجم الجزيئة وقد تكبر حتى يزيد حجمها على حجم الكرة أو أكثر من ذلك فهى ليست ذات حجم ثابت خاص

صحيح أن أشكال الكائنات الحية فى تغيّر وتحول مستمرين بحكم ناموس التطور، وهذه الحقيقة عينها هى أنصع دليل على وجود الفرق بين تلك الكائنات وبين الجمادات . والذى نعرفه ويعرفه معنا الأستاذ هو أن شكل الفرس بل وحجمه أيضاً قد تغيرا كثيراً عما كانا عليه قبل ملايين السنين . ومثل الفرس الفيل وغيره من أنواع الحيوان ، ولكن العلم لم يحدثنا بأن بلورة الملح قد تغير حجمها أو شكلها منذ أن وجد الملح على هذا الكوكب.

وأما القول بأن البلورات المعدنية الصرفة (تستطيع) إذا « غُطّست » فى سائل مشبع من مادتها أو فوق المشبع أن تنمو فتعيد الجزء المصاب إلى حالته الطبيعية فهو دليل آخر على وجود الفرق بين الأحياء والجمادات ، وإلا فأى معنى يبقى للفظة غطست إذا لم يكن كل معناها هو تضمن قوة خارجة عن البلورة تقرب بين ذراتها فتتصل ببعضها بمجرد فعل الألفة الكيميائية ؟ والفرق واضح بين ما يجرى فى هذه الحالة وبين اندمال الجرح أو نمو العضو المقطوع بنمو خلايا الجسم الحى من الداخل وبدون استعانة بقوة خارجية ظاهرة

تغذى الأحياء والجمادات

والفرق واضح أيضاً بين تغذى الأحياء وتغذى الجمادات؛ فبينما

(1) فى الحالات الطبيعية

تتغذى الأولى بتحويل المواد الأولية إلى مادتها العضوية تكتفي كمية الهواء بزيادة جزيئات حامض الكربنيك في حالتها الطبيعية إلى جزيئاتها، وليس لها في هذه العملية نصيب ظاهر ولا فائدة محسوسة. والذي يدعو إلى العجب حقاً أن يكون خير مثال عند الأستاذ لتغذي الجادات « بالمعنى الحقيقي التام » هو ما يحصل من احتراق الوقود في الآلات الميكانيكية فإن هذه كما هو الحال مع كمية الهواء لا تستطيع تحويل مادة الوقود إلى حديد أو غيره من نوع العنصر الذي تتركب منه أجزاؤها، وأما أن يكون التفكير والقوى العقلية وما إليها من مصدر واحد فقط هو الطاقة الكيميائية الكامنة في مادة الغذاء فهو غلو لا نقر عليه أحداً

التنفس في الأحياء والجمادات

أما التنفس أو استعمال الأكسيجين الموجود في الهواء بواسطة الأجسام الحية فهو الفرق الجوهري الذي ذكرناه في أول هذا المقال وقلنا: إن العلماء يعلقون عليه أهمية كبرى في تفهم ماهية الحياة. وقد مرّ الأستاذ بهذه الخاصية بالذات مرّ الكرام وكان الأجدر به أن يُقصر كل مقاله على بحثها ودرسها. ولأهميتها الكبرى سنبقيها إلى آخر كلمتنا هذه لنوفيها بعض الحق ونوضح ما ذهبنا إليه من أن فيها فقط يمكننا أن نعثر على الفرق الجوهري بين الأحياء والجادات

تحرك الأحياء وتحرك الجمادات

يختلف تحرك الأحياء عن تحرك الجادات في أن تحرك الأولى يكون بمحض إرادتها إلى درجة ما تختلف باختلاف مستوى الحيوان في سلم النشوء. أما تحرك الثانية فهو نتيجة لفعل القوى الخارجية كالرياح أو القوى الجاذبة أو الدافعة وغيرها من العناصر وليست حركة براونية Brovnian Movement إلا مثالاً للنوع الأخير(١) كما أنه بعيد جداً عن الصواب أن تكون حركة الأجسام « تحت تأثير الجاذبية أو الألفة الكيميائية » حركة اختيارية؛ فمجرد تسلط هاتين القوتين عليها يخرج بها عن دائرة الاختيار. ولكي نوضح ذلك نضرب مثلاً بحركة أناملي وأنا أحبر هذا المقال؛ فما أعظم الفرق بين هذه وتلك؛ ونعني حركة ذرات الأملاح في محلولاتها. أما حركات الحيوانات ذات الخلية الواحدة وهي كثيرة الشبه بحركة ذرات الأملاح فإنها تختلف عن هذه

(١) Charles R. Plunkett, Oullines of modern Biology, N. J., Henery Holt & Co., 1930 P. 62

في أنها لا تكون إلا لدفع أذى أو الحصول على قوت، ومعنى ذلك أنها تكون لفائدة تعود على الجسم الحي. وتختلف عنها حركة الآلات الميكانيكية في أن هذه الأخيرة تفقد فقداناً وقتياً متى نفد الوقود بينما يموت الجسم الحي إذا فقد الغذاء وليس الموت معروفاً بين الجادات

التأثر في الأحياء والجمادات

يخطئ الذي يقول بأن تأثر الأحياء كتأثر الجادات. فالمواد المفرقعة التي « تغضب » وتنفجر لا تستطيع أن تجمع نفسها « وتهدأ » أو تخفي غضبها كما يفعل الأحياء. وتأثر مواد التصوير الشمسي بالضوء لا يجلب لهذه المواد فائدة ما بخلاف الحال مع الأحياء التي تتلون بلون المحيط لتتقي شراً قد أحدق بها، أو على الأقل لمثل هذه الغاية تتلون وهي تسترد حالتها الطبيعية متى زال الخطر أو انتشلناها من المحيط الذي كانت فيه.

ثم إنه ليس صحيحاً أن الوتر في الآلة الموسيقية يهتز اهتزازاً (ذاتياً) عندما يدق الإنسان على وتر مقابل. والذي يحصل تماماً هو أن اهتزاز الوتر الأول يهز ذرات الهواء الموجودة في محيطه، ويحدث هذا الاهتزاز أمواجاً تسبح في فضاء الكون بأسره. ولما كانت هذه الذرات قريبة من أخواتها فإنها تحدث بواسطة الأمواج الآنفة الذكر اهتزازاً تنقله هذه بدورها إلى الوتر المقابل؛ وبهذه الطريقة نفسها ينتقل الصوت من أقاصي الأرض إلينا عندما نجلس إلى الراديو(١).

التفاعل مع البيئة

وهناك اختلاف آخر بين الأحياء وبين الجادات: هو تبادل التأثر بينها وبين المحيط، وهذا يختلف في الأولى عنه في الثانية. فبينما لا يكون التأثر عند الأحياء إلا بقصد الحصول على فائدة ما أو الخلاص من خطر داهم إذا به ليس كذلك عند الجادات. ونحن لا نستطيع أن نفهم الجسم الحي مستقلاً عن محيطه، فهو ناقص بدونه بخلاف الجادات التي لا أثر للمحيط فيها إلا بقدر ما يكون بينها وبينه من تفاعل كيميائي لا يتم إلا بتدخل عناصر غريبة عنها. فهذه الورقة التي أكتب عليها لا تتأثر مطلقاً بانعدام الأكسيجين في الغرفة، وكل إنسان يعرف ما يقع للكاتب عندما

(١) راجع كتاب Oscar M. Stewart, Physics, Girm & Co., recired edition part III wave morion & Sons.

يحصل ذلك لا سمح الله . والدور الذى يلعبه الأكسيجين فى عالم الأحياء هو الفرق الجوهرى بينها وبين الجمادات .

نظرية « نوموغرام » الدم للبروفسور هندرسن [١]

كلنا يعرف ضرورة غاز الأكسيجين للكائنات الحية. والواقع أنه لا يمكن تحديد الحياة بدون اعتبار أمرين فى غاية الأهمية ؛ هما : كيمياء الغازات وعلى الخصوص غاز الأوكسجين ، والصفة التى يمتاز بها الجسم الحى من أنه يكون ومحيطه وحدة كاملة حتى ليفقد صفة الحياة فى غير ذلك الوضع . وهذا بخلاف الحال مع الجمادات التى كل تأثرها ليس إلا من قبيل التفاعل السلبى مما لا يمكنها التسلط عليه بحال من الأحوال [٢] . والمفهوم أيضاً أن العلم الحديث لم يستطع بعد أن يتوصل إلى معرفة جميع المواد الكيميائية التى يتركب منها البروتوبلاسم [٣] وكل ما توصل إليه فى هذا المضمار لم يتعد إثبات نقطة واحدة تحقق أنها ذات أهمية كبرى هى أن المواد التى تتركب منها الأجسام الحية من التعقيد بحيث أنه لا يمكن معرفتها معرفة صحيحة تامة . وقد جاءت نظرية العلامة هندرسن بما يؤكد هذه النتيجة . وسنحاول أن نشرح قدر الاستطاعة هذه النظرية الفريدة ؛ فبها فقط يمكننا أن ندرك الفرق الجوهرى بين الأحياء والجمادات

كانت النظرية القديمة الخاصة بصلة الدم بغاز الأكسيجين وأهمية هذا فى التنفس والتغذية وإزالة الفضلات فى الجسم فى غاية البساطة ، فهى تتخلص فى أن هناك مادة فى الدم تعرف بالهيموجلوبن Hœmoglobin تتحد بالأكسجين الموجود فى الهواء وفق المعادلة :

$$Hb + O_2 = HbO_2$$

ولا شك أن لهذا الاتحاد أهمية كبرى فى تفهم ماهية الحياة . غير أنه قد ثبت بالبحث أن ثمة نقصاً فى هذه المعادلة ؛ فقد قرر العلامة باركروفت Barcroft [٤] أنه زيادة على الصلة الموجودة بين كمية الأكسجين التى يمتصها الدم من الهواء فإن هناك صلة أخرى

(١) L. J. Hendersons Nomogram of The Blood.

(٢) F. S. C. Northrop, Science and First Principles, N. Y., Macmillan Co., 1931 pp. 175-173 Seba Eldridge, The Orgnization of Life, N. Y. Thomas Y. Crowell Co. 1925 pp. 12,13

(٣) F. S. C. Northrop, Science and First Principles, p. 164

(٤) J. Barcroft, The Respiratory Function of The Blood, p.p. 16 & 65 ff. Cambridge Press

بين هذه الكمية وكمية ثانى أكسيد الكربون الموجود فى الخلايا الحية . ولهذا الاكتشاف قيمته من حيث إنه قد أرشدنا إلى تغير قدرة الدم على امتصاص الأكسجين بتغير كمية ثانى أكسيد الكربون الموجود فى الألياف التى يتركب منها الجسم الحى وهنا لزم تعديل المعادلة الأولى على الصورة الآتية :

ه = (CO_3 و O_2 و HbO_2) ع

ومعنى هذا أنه متى عرفنا مقدار أى اثنتين من هذه المواد غير الثابتة التركيب أمكننا معرفة المادة الثالثة بمجرد النظر إلى المعادلة . غير أن العلماء الثلاثة ج . س . هالدين ، وكرسينانوس ، ودوجلاس [١] قد استطاعوا إثبات وجود صلة أخرى مشابهة للتى ذكرناها بين ثانى أكسيد الكربون ، والكربونات [٢] ، والأكسجين إذ وجدوا أن كمية الكربونات تقل بزيادة كمية الأكسجين ؛ وهكذا تعدلت المعادلة الثانية فصارت :

ه = (O_2 و CO_2 و $BHCO_3$) ع

وبمتابعة هذه الطريقة فى التحليل استطاع العلامة هندرسن أن يثبت وجود معادلة رابعة :

ه = ((H^{*}) $B\ HCO_3$ و Co_2) ع

ثم خامسة : ه = (BCl و O_2 و Co_2) ع

ومن هذا يفهم أننا لا زلنا فى المرحلة الأولى فى محاولتنا الوصول إلى معرفة كيمياء الدم ، إلا أن ما عرفه العلماء حتى الآن قد أوجد مجالاً للتفكير أدى إلى إجراء تجارب عديدة أثبت بها العلامة هندرسن أن الدم فى تفاعله مع المحيطين الداخلى [٣] والخارجى إنما يمثل توازناً Equilibium ذا عشرين ضلعاً تدخل فى تكوينه ست مواد يربط بعضها ببعض عشرون معادلة .

هنا يجدر بنا أن نذكر بعض خواص هذا التوازن ، فى هذه وحدها يكون الفرق الجوهرى بين الكائنات الحية وبين الجمادات . وأهم هذه الخواص هى اشتراك الأكسيجين فى ذلك التوازن بل إنه (أى التوازن) لا يتم مطلقاً بدون الأكسجين ؛ فأهمية الأكسجين للجسم الحى أكبر من أهمية أى مادة من المواد التى يتركب منها بل هى كما أثبت البحث فوق ذلك بكثير وهذا ما نعنيه

(١) J. S. Haldane, Respiration. Ch. XIV, p. 88. Yale Press

(٢) Combined Carbon dioxide or carbonate

(٣) داخل الجسم وهو فسيولوجى



دراسات فى الفن

الحب والمرأة والفن

للأستاذ عزيز احمد فهمى

جانب كبير جداً من الفنون يدور حول الحب

ولا عجب فى هذا ، فالحب عاطفة تشترك فى تخليقها عدة غرائز من أقوى الغرائز التى يقوم بها كيان النفس الإنسانية وهى مبعث العواطف . ومن هذه الغرائز التى تخلق الحب فى النفس : غريزة حفظ النوع ، وغريزة السيطرة ، و « غريزة العشرة » وهى أخص وأعنف من غريزة الاجتماع ، و « غريزة الوثنية » التى تنزع بالإنسان إلى تجسيد ما يصبو إليه وتحديده، والتى تخرج به من إبهام المتجرد إلى وضوح الملموس ، وهى غريزة لم تضعف إلا عند الذين يدمن إحساسهم التدريب على الاتجاه نحو معان يحبونها ويدهش لهم العالم ويتساءل : كيف يحبونها ؟

وهذه الغرائز التى تخلق عاطفة الحب كل منها قوى عنيف . ونفس الفنان بطبعها أكثر طواعية للتأثر من غيرها لأنها أشد حساسية من غيرها . وإذا كانت نفس الفنان تلبى مسرعة نداء المؤثرات الخارجة عنها فأجدر بها أن تستجيب لهتاف المدوى فى جنباتها . فلا غرابة إذن أن يزدهر الحب بين أهل الفن أكثر مما يزدهر بين غيرهم ، ولا غرابة بعد ذلك إذا دار جانب كبير جداً من الفنون جميعاً حول الحب ، فليست نفس أخرى أقرب إلى نفس الفنان من نفسه ، وليس أحب إليه منها ، وليس أجدر منها بالالتفات الذهنى والحسى ، وليس أشد منها وضوحاً لديه ، وليس شىء أبعث منها على التسجيل

ولكن الذى نلحظه هو أن جانباً كبيراً جداً من فنون الحب يئن بالشكوى من هذا الحب ، ويرضخ بالذل له ، ويستعطفه متشفعاً إليه بالفن ذاته ، كما أننا نرى فى هذه الفنون المكلومة كثيراً مما يشبه علامات اليأس ، وقد نرى منها قليلاً مما يشبه علامات التمرد الذى يعقب اليأس ، إذ ينكر بعض الفنانين الحب إنكاراً ، وإذ يسخر بعضهم من المرأة سخرية شاذة لا أصل لها فى الطبيعة ولا شبيه لها فى حياة الحيوان

وهذا يشهد بأن الفنانين فاشلون فى حبهم ، أو هو يشهد على الأقل بأن كثيرين جداً من الفنانين يفشلون فى حبهم . فما الذى يدعو إلى هذا ؟ أهو قصور فى رجولة هؤلاء الفنانين ؟ أم هو التواء حاد بنفوسهم عن المسلك الطبيعى الصحيح الذى يجب أن يسلكه الذكر مع الأنثى ليقنعها بنفسه ؟ أم هو انحراف عن أساليب الأرض إلى أسلوب جديد بعيد تسمى الحياة إلى اصطناعه وستأخذ به يوماً ولكن بعد أن يكون هؤلاء الفنانون قد ركلوا الأرض إلى عالم يرتاحون فيه ولا يشقون ؟ أم هو هذا كله مزيجاً مركزاً ؟

عند ما نقول إن الجسم الحى هو عبارة عن توازن فيزيقى – كيميائى [1] ذى قوة حيوية يحصل بين المواد الموجودة فى داخل الجسم، وبين أخواتها فى الخارج . ويفهم من كل هذا أن الهواء الذى نستنشقه بل كل الطبقة الهوائية المنتشرة على سطح الأرض والتى يتوقف عليها مقدار كثافة الأكسجين هى جزء لازم لكيان الأجسام الحية لزوم العظام واللحم الذى يكسوها ، وهو ليس كذلك للجمادات . إذاً فالفرق بين هذه ، وبين الكائنات الحية موجود ، وهو التوازن الوقتى الذى تقيمه الطبيعة بفعل قواها فى المواد الأولية – ذلك التوازن الذى لا يوجد له شبيه فى عالم الجمادات .

« بيروت – الجامعة الأمريكية » عبد الله عشرى الصديق

(١) Physico-chemical

الطبيعة وحدها هي التي تهدينا إلى سر هـذه الشكلة . وإذا كانت حياة الإنسان قد تشابكت من نواح ، وتحللت من نواح ، وعقدت الحضارة أغلب أطرافها وأوساطها بحيث لم يعد من اليسور لـكل عين أن تميز الأصيل في أفعال البشر من الدخيل عليها ، فإن لنا في حياة الحيوان ما يدلنا بوضوح وجلاء على طريقة التهافت الطبيعية التي تجذب الذكر نحو الأنثى ، والتي تجذب الأنثى نحو الذكر . فإذا ما تعلمنا من الحيوان هذه الطريقة عدنا إلى الإنسان الفنان ونظرنا : هل هو يماشي الطبيعة في غرامه أو هو يحيد عنها مترفعاً أو متدلياً أو هائماً على وجهه يتخبط ذات اليمين وذات الشمال؟

وقبل أن نخطو هـذه الخطوة يجب أن نجيب عن سؤالين قد يخيل لبعض الذين يصحبونني في جولتي هذه أنهما يعرقلان المضي في مذهبنا ، أو أنهما على الأقل يشوهان هذا المذهب .

أما السؤال الأول فناعم خفيف يقول لنا بصوت خافت رقيق : هبكم رأيتم الفنان قد حاد عن طريق الطبيعة التي تزعمون فلماذا تخصونه بالحساب والعتاب من بين الناس وأ كثرهم حائد عن هذا الطريق ؟ وإذا كان هو يئن بالشكوى من حبه ، فكثيرون غيره يئنون؛ غير أنه يذيع أنته وهم لا يذيعون؟! ونحن نجيب عن هذا السؤال فنقول : إن الفنان هو رائدنا إلى الطبيعة؛ وليس يبرر بعده عنها إلا أن يكون هذا البعد قفزة إلى مرحلة من مراحل الرقي الإنساني يسبق بها البشر ليكون فيهم بشيراً بما سينتهون إليه بعد حين . وليس مما يريح ضمير الإنسانية أن ترى الفنان وهو هاديها إلى الحق ومواطن الراحة مضطرباً في حياته الخاصة ، وفي أعز جانب من حياته الخاصة هذه دون أن تعرف علة هذا الاضطراب لعلها تستطيع أن تنقذه منه

وأما السؤال الثاني فيصرخ فينا بعنف ويقول : كيف قررتم أن الحب عند الإنسان يشبه الحب عند الحيوان ، ولم تروا أنه أرق وأشرف ؟ ونحن نرد هـذا السؤال بقولنا : إن الحب لا يمكن أن يخرج على حال من حالين : فإما نزوع روحاني لا يصحبه النزوع البدني وهذا شيء لا يعوقه عائق ، ولا تصده عقبة ، ولا يمكن أن يشكو فيه شاك من بُعد أو حرمان أو لوعة أو صبابة أو هجر أو غدر أو غير ذلك مما يشكوه العشاق ، ومما تدور حوله فنون المتبرمين من الفنانين العاشقين ، فالروح متى رضيت عن روح لم تمد تعبأ بما يفرق بينهما من بعد المكان ، أو بعد الزمان ، ولم تمد تهتم باختلاف الجنس بينهما أو توحده

إما هذا ، وإما أن يصحب هذا النزوع الروحاني نزوع جسدي وفي هذا تظهر الشكوى ، ويظهر الأنين ، وتظاهرفنونهما فلا بد إذن أن يكون النزوع الجسدي هو الذي يسببهما إذا لم يصب التوفيق ، وهـذا النزوع البدني موجود عند الحيوان ، ولـكنه يصيب التوفيق دائماً ، ولا يفشل مطلقاً إلا عند المدوان حين يندس بين الذكر وأنثاه ذكر جديد قوي غلاب ، وعلى هذا كان من غير الطبيعي في حياة الإنسان أن يفشل الرجل في حبه ما لم يصرعه رجل أقوى منه في الناحية التي تعترف بها الأنثى ، وتنقاد لها.

هذان هما الحالان اللذان يتشكل بهما الحب في حياة الإنسان على الإطلاق . وأرى من العفة أن أربأ بصورة الحب الإنساني عن الحالة الثالثة التي يتفرد فيها النزوع البدني وحده . لا لأني أريد أن أمجد الإنسان ، ولـكن لأني أرى في بعض الحيوان ما يعف عن هذا الحب ويتسامى عليه ، ويجمله بالألفة والمعاشرة ، والحنان والتعاطف . والمُسلم به أن الإنسان أرق من الحيوان .

وبعد ، فإني أحسب أن الطريق قد عبد أمامنا ، وأننا نستطيع أن نخطو فيه خطوتنا الأولى نحو الحب عند الحيوان .

والذي نلحظه هو أن للحيوان غزلاً يشبه الغزل عند الإنسان من حيث إنه دليل الرغبة في إقامة الصلة بين الذكر والأنثى، ومن حيث إنه الباب الوحيد الذي يؤدي إلى الحب . والمشاهد أن هذا الغزل يتخذ عند الحيوان عادةً شكل الصراع ، ومن الحيوان ما يترفق فيه فيكون صراعه كاللعب والمداعبة ، ومنه ما يشتد فيه ويقسو فيكون صراعه صراعاً حقيقياً تهشم فيه العظام ، وتسيل فيه الدماء . وهذا النوع الأخير من الصراع يقيم الدليل المحسوس عند الأنثى على أن الذكر الذي ينازلها قوي غلاب ، وعلى أنه يأخذ حقه منها قوة واقتداراً ، وأنه لا تثنيه مقاومتها إياه عن الوصول إلى ما يريده من فرض سلطانه عليها ، والأنثى في هـذا الصراع المنيف تبذل أقصى قوتها لتحول بين الذكر وبين التسلط عليها ، لا لأنها تكره أن يتسلط عليها ، ولـكن لأنها لا ترضى أن تذل لضعيف قد يعجز عن حمايتها وحماية نسلها إذا اعتدى عليها معتد ، هذا إذا كانا من الحيوان الذي يألف ذكره بأنثاه ، أما إذا لم يكونا من هذا الحيوان فهي تكره أن تستسلم للضعيف خشية أن ينتقل ضعفه إلى نسلها الذي تحب أن يكون قوياً غير ضعيف بما ركب في نفسها من غريزة حفظ النوع سليما صالحاً .

أما النوع الآخر من الصراع وهو الذي يشبه اللعب والداعبة فهو أقرب أنواع اللعب والداعبة إلى المصارعة الإنسانية المصطنعة

التي يقيم الناس لها الملاعب في هذا العصر والتي يكتفي فيها الغالب في التدليل على قوته بإظهار تمكنه من تهشيم خصمه دون أن يهشمه. وهذا الأسلوب تصطنعه الحيوانات الرقيقة، والحيوانات المستأنسة.

ومهما خلا هذا الأسلوب من التحطيم والتهشيم والتجريح، فإنه لا يخلو من معانيها، وإن فيه ما يدل دلالة تامة على احترام القوة والاعتراف بلزوم الغلبة والقهر يقيم عليهما الذكر صلته بأنثاه.

فإذا أضفنا إلى هذا ما نراه من تجميل الطبيعة للذكر دون الأنثى: كالديك ازدان بالعرف دون الدجاجة، والأسد تحلى بالمعرفة دون اللبؤة، والكبش ازدهى بالقرنين دون النعجة، والطاووس تبرج بذيله الملون الطويل دون «الطاووسة» ... إذا أضفنا هذا إلى ما تقدم رأينا أن الطبيعة توجه الذكر إلى «مكايدة الأنثى»: قهراً بالقوة، أو اعتزازاً بالجمال، أو قهراً واعتزازاً بالقوة والجمال معاً. ومن هذا يمكن أن ندرك أن الطبيعة قد وضعت ناموساً تقوم عليه الصلة بين الذكر والأنثى، وأن هذا الناموس يستلزم أول ما يستلزم أن يذل الذكر أنثاه، وأن يذكرها دائماً بأنه أقوى منها، أو أنه أقوى وأجمل منها.

والطبيعة توفر في هذه السوق التي يتداول الذكر والأنثى فيها نواحي القوة والضعف، ونواحي الزينة والعطل وبقية تلك الزوائد والنواقص فيهما شرطاً لا بد أن يتوفر في هذه السوق: وهو أن تقتنع الأنثى مؤمنة صادقة مجبرة بفضل الذكر عليها فيما يمتاز به، وإلا فالصلة بينهما زائفة، وهو آخذ منها ما يرضيه ويقنعه، إذ لا يعطيها ما يرضيها ويقنعها كما يحدث للحيوانات المسجونة التي تنسل نسلاً ضعيفاً

اتفقنا في هذا. فلنعرج إذن على الحب عند البشر، ولتكن القبائل التي تعيش على الفطرة أول من نشارف من البشر. وهذه القبائل لا يزال الرجال فيها يمثلون ما يشبه الدور الذي يمثله الذكر الحيوان مع أنثاه. فالقوقاز لا يسلمون العروس لعروسها، وإنما يدبر العروس حملة على محلة عروسه فيهجم عليها في جمع من أهله وأصدقائه، ويختطف عروسه من بين أحضان أهلها بالقوة والعنف ليشهدها وليشهد أهلها على أنه قوي جدير بها، وليسجل عليها هذه الشهادة يذلها بها طول عمرها معه إذا حاولت أن تتمرد عليه أو أن تطاوله. وبعض قبائل الزنوج تحتفل بزفاف فتياتها احتفالاً أعجب من احتفال القوقاز وأشد افتخاراً بالقوة والجلد والصبر. وإن لم يكن فيه من الشجاعة والفروسية شيء: ذلك أنهم يتداولون على العروس السعيد بالضرب المبرح الموجع، فقدر ما احتمل الضرب وكتم التوجع عز عند صاحبته وزاد احترامها إياه ورأته حقيقاً بالحب: لها بل عليها أن تفاخر به معجبة راضية ... ولا يزال من أهل النوبة المصريين من يفعلون ما يشبه هذا. فالعروس يطلب من صاحبته أن تحضر له جمرة من النار ليشعل بها لفافته، فتحضرها إليه. فيمسك الجمرة بيده، ويضع الجمرة على حجره تأكل جلده ولحمه وربما يتأنق في لف التبغ في الورق ليشعل بعد ذلك لفافته ويعيد الجمرة إلى مكانها، وبقدر ما يطول احتراق جسده ويشتد يعز عند صاحبته ويعلو قدره

والمرأة القوقازية تحب من يخطفها لأن بيئة القوقاز بيئة رعي ومهاجرة ومحاربة تكثر فيها الغارات، ويكثر فيها الكر والفر ولا يستطيع أن يخطف المرأة فيها إلا البطل. والمرأة الزنجية تحب من يحتمل الضرب الموجع في سبيلها لأن بيئة الزنوج بيئة قاسية تضرب الناس بالحر والبرد والمطر والريح والمرض والسم، فالأشد صبراً من غيره في هذه البيئة هو البطل. والمرأة النوبية تحب الذي يحترق في سبيلها بالنار لأن بيئة النوبة يموت فيها الضعاف من وهج الحر والقيظ وشدتهما، فالذي يحتمل الحرارة عندهم هو البطل هذه بيئات إنسانية قريبة من الطبيعة والرجل فيها لا يزال يلوح للمرأة بقوته، والحياة فيها لا تزال مستقيمة بين الرجل والمرأة

أما جمال الرجولة الخشن فقد ظل الرجال يحرصون عليه زماناً طويلاً كانوا يرسلون فيه شواربهم ولحاهم التي زينتهم بها الطبيعة ولكنهم اليوم لم يعودوا يحافظون عليه، واكتفى فريق من أهل المدنية فيهم بممارسة الألعاب الرياضية لتنمية عضلاتهم وتقويتها كما كان يفعل اليونان القدماء في وقت يذكر التاريخ أن المرأة فيه كانت متبرمة بالرجل لأنه اكتسب من رياضته تناسقاً وامتشاقاً انشغل به عن النظر إلى جمال الأنثى

ولعل هذه الألعاب الرياضية هي البقية الباقية من معالم الرجولة القوية التي تحتفظ بها الحضارة اليوم، ولكنها شيء إذا كسا البدن رجولة أو ما يشبه الرجولة فإنه لا ينفذ إلى الروح والنفس، ولذلك يستعين الرجل المتحضر اليوم على قهر المرأة بالمال أو الجاه أو النفوذ أو المنصب أو الشهرة أو غير ذلك مما يتنافس فيه الرجال المتحضرون. ونحن إذا أنعمنا النظر في هذه الميزات المدنية كلها رأينا أنها لا تتاح إلا للذين يتكالبون على العمل في سبيل الوصول إليها أو للذين يصيبونها عفواً بالوراثة أو بالواسطة؛ أما الذين يفوزون بها عن جدارة فأولئك الذين في حسابنا، وهم

ينفقون فى سبيلها من رجولتهم ما كانت المرأة تحب أن يستبقوه لها فهى لا تستطيع أن تستغنى عن حياة المناوشة والمصارعة وهى تكره أن تبيع نفسها بالمال ، وإن كانت تبيع نفسها بالمال ؛ وهى لا تقنع من الرجل بجاهه وإن كانت ترتمى على أصحاب الجاه ؛ وهى لا ترضى بمنصب الرجل وشهرته وإن كانت تتهافت على أصحاب المناصب الكبيرة والمشاهير ، فهى تنحرف عن طبيعتها مجاهدة مستعيضة بهذه البهارج عما كانت تتوق إليه من قوة الرجل ورجولته . ولعل حوادث الخيانة الزوجية التى تتعدد وتتكاثر فى المدنيات دليل قاطع على أن الزوجات ساخطات على الأزواج ، وأنهن لا يزلن يبحثن عن الرجولة الضائعة فى هذه الحضارة

وإذا كانت المرأة تكره المال والجاه والنفوذ والمناصب العالية وما فيها من أبهة ولا تقبل عليها إلا على سبيل البدل عن مطلبها الطبيعى ، وإذا كانت لا تزال تحب أن ترضى طبيعتها بين يدى من يذلها برجولته ومن يتقن فنون المنازلة والمصارعة على ألوانها فماذا هى صانعة عند الفنان أو ماذا هو صانع بها ؟

الفنان تسيطر عليه الغرائز التى تسيطر على بقية الناس فهو إنسان مثلهم . ولكن هذه الغرائز لا تشتد به — حين تشتد — كما تشتد ببقية الناس ، ولا ترفق به — عند ما ترفق — كما ترفق ببقية الناس ، فهو وإن كان يحب أن يحفظ النوع البشرى كما يحب الناس أن يحفظوه فإنه يسعى إلى ما هو أشرف من حفظ النوع وهو ترقية النوع ، والفنان يؤدى لهذا النوع بفنه ما يجاهد النوع دهوراً فى سبيل الوصول إليه . وهو وإن كان يحب السيطرة كما يحبها بقية الناس فإنه يتمتع من السيطرة بما لا يتمتع به أحد ، ففنه يلوى عنده الأعناق ويخفض بين يديه الرؤوس ؛ فإذا لم يوفق إلى هذا فى حياته فهو على إيمانه بفنه مؤمن بأن البشرية التى غفلت عن تقديره وهو فيها ستنال جزاءها إذ تنصاع يوماً إلى قبره لتطوف بالتقديس حول عظامه ولو بعد أن ينخرها السوس ! وإنه ليرى ذلك وهو فى ظل العرش . وهو وإن كان يحب العشرة كما يحبها بقية الناس فهو يتأنق فى اختيار عشرائه من المعانى والأخيلة والأفكار التى يرصد لها انتباهه وإحساسه ويتمقها ويتبختر عندها مترنحاً منتشياً كراهبة ترقص فى خلوتها على نغم الذكر عابدة لا فاجرة ، خالصة غير مشوبة

هذه هى الغرائز التى كان حقها أن تشترك فى تخليق الحب فى نفس الفنان كما تخلقه فى نفوس بقية الناس ، ولكننا قد رأيناها جميعاً تعدل عن الحب إلى الفن

وبقيت بعد ذلك « غريزة الوثنية » التى ذكرتها فى بدء هذا الحديث ، وأحسبنى قلت إنها لم تضعف إلا عند الذين يهد من إحساسهم التدريب على الاتجاه نحو معان يحبونها هم ، ويدهش لهم العالم ويتساءل : كيف يحبونها؟ ومن يكون هؤلاء غير الفنانين؟

إذن فالفنانون على هذا الأساس لا يحبون ! وعلة انصرافهم عن الحب بعيدة كل البعد عن الأسباب التى توقعناها فى أول حديثنا ، فقد خيل إلينا أن عجزهم عن الحب قد يرجع إلى قصور فى رجولتهم ، أو التواء حاد بنفوسهم عن مسلك الحب الطبيعى الصحيح ، أو انحراف عن أساليب الأرض إلى أسلوبهم الجديد

ولكننا رأيناهم فى أول حديثنا يحبون . وقد سجلنا عليهم فشلهم فى الحب من بعد تسجيلهم إياه على أنفسهم فى فنونهم ... فهل هم يحبون أو هم لا يحبون ؟ ... أحبهم الله !

الواقع أنهم يحبون ولا يحبون . فالفنان إنسان حائر بين حلقتين من حلقات التطور البشرى . أولاهما الحلقة التى يعيش فيها ، والأخرى الحلقة التى ينتقل إليها بروحه ويستنبطها فنه ثم يعود بعد ذلك إلى ناسه . وهذه الحلقة التى يُسرى به إليها ستتحقق يوماً ما فى الأرض سواء أكان هذا اليوم قريباً أم بعيداً وسيعيشها الناس وكلهم فى مستوى ذلك الفنان الذى يبهر جيله وسيكون من بينهم فنانون يبهرونهم بما يستنبطونه من حلقات أخرى لا يسرى به إليها غيرهم . وقد ينكر هؤلاء وقد يعترف بهم ... أمرهم وأمر الحق إلى الله

هذا هو مسلك التطور الروحانى للانسانية فهو (كالداروينية) الجسدية ولكنه أشد غلياناً وإبهاماً

والفنان يتذبذب بين الأرض وسمائه يتلون بلونين ويتشكل بشكلين : شكل يلائم حياة الأرض بقدر ما تسمح ذمته الفنية أن يتسامح فى أمانته ، وشكل آخر لا يلائم إلا الذين يستطيعون أن يطيروا معه إلى سمائه ولو أتباعاً مسترشدين به . والفنان السعيد الذى يرضى الله عنه هو الذى يوفق إلى غرام واحدة من بنات السماء . والفنان المنكوب الذى أرجو له الرحمة هو الذى يتعلق به غرام واحدة من بنات الأرض : تثقل به وتمرغه عن قفزاته فإن أشفقت عليه وسمحت له بهجرته إلى السماء كما شاء لم يجد عندها حين يهبط إليها إلا ما اختص به الله بنات الأرض . فهو شقى معها كشقاء المقعد الذى يلهب طاغية ظهره بالسياط ليجرى فى سباق مع صبيان خفاف شياطين ... وإن كان المثلان متماكسين

من هنا ومن هناك

دعاوى إيطاليا فى قناة السويس – لمحرر الوبرلد دايجست

نقلنا فى هذه الصفحة من العدد ٣٠٢ مقالاً للكاتب الايطالى ف . بارتو عن دعاوى إيطاليا فى قناة السويس ، وقد نسب الكاتب الفضل فى وضع تصميم القناة وتأسيسها إلى مهندسين إيطاليين ذكر من بينهم : نجرللى وبترمو وجوايا ، وزعم أن إيطاليا هى الدولة الثانية من بين الدول التى تمر فى هذه القناة ... إلى آخر ما جاء فى ذلك المقال ، والمقال التالى رد على ذلك المقال نلخصه للقراء ليطلعوا على وجهتى النظر فى المقالين .

منذ سنين عديدة كتب أوسكار وايلد مقالاً قيماً عن اضمحلال رذيلة الكذب . فلو عاش فى عصرنا هذا الذى انتشرت فيه وسائل الدعاية بين الدول الحديثة ، فما لاشك فيه أننا كنا نقرأ له فصولاً ممتعة عن نهضة الكذب .

إن الدعاوى العريضة التى يدعيها الإيطاليون فى قناة السويس فى هذه الأيام ، مما يجعل النفس تشمئز ويعروها الأسف الممض لهذه الهوة التى انحدرت إليها الصحافة فى العصر الذى نعيش فيه

ونحن وإن كنا لا نبرئ الصحافة فى عصر من العصور من الانحراف عن الجادة فى بعض الأحيان ، إلا أننا نعتقد أن هذا الانحراف لم يكن يعدو الأمور الصغيرة التافهة التى لا تؤثر بحال من الأحوال فى الشئون العامة التى لها أكبر الأثر فى حياة العالم

ولكن إيطاليا وألمانيا تذهبان إلى آفاق بعيدة المدى فى الكذب فى شئون لها الأهمية الكبرى فى الحياة ، ولعل أسوأ الأمثلة لهذا الكذب الصراح ، هو ما تنشره الصحافة الإيطالية عن قناة السويس ، لا فى إيطاليا وحدها ، ولكن فى تونس والأمريكتين مما ينافى الحقيقة من جميع الوجوه .

ولقد استطعت بعد الاطلاع على هذه المزاعم أن أتوفر على هذا الموضوع وأبحثه بحثاً جديداً فتبين لى أن هؤلاء القوم يلجئون إلى بعض المخلفات القديمة ، ليستخرجوا منها أسماء لها

وينتبه الفنان إلى علة إخفاقه فى حبه ، فإما أن يرضى من محبوبته بما طاب له فيها من الجمال الروحى والبدنى ، وإما أن يحاول صقل نفسها وتهذيبها ليجعلها تشبه ما يجب أن تكون عليه ، فإذا وفق فى هذا فإنه يرضى أغلب الرضى، أما إذا فشل فيه فهو الشاكى المتبرم الساخط على الحب اليائس منه المتخاذل أمامه أو المتمرد عليه

وقليلاً جداً مايفرغ الفنان من وقته لمصارعة المرأة ومناوشتها لأنه يتعلم من جولاته فى السماء أن هذه المصارعة من أساليب العنف التى يصح الاستغناء عنها بإدراك نتائجها ، فيحاول أن يتشفع إلى المرأة بفنه ، وهو على كثرة ما يتدلل بفنه يخضع نفسه ويخضع فنه للمرأة ويسعى إليها فى هذا الخضوع خاشعاً متوسلاً مستجدياً عطفها ، فإذا به ينقلب أمام المرأة شيئاً آخر أكثر رحمة بها من الرجل ، وأشد حناناً منه ، وأكثر بذلاً وعطاء وتضحية فى سبيلها ولكنه على أى حال ليس ذلك الرجل الذى تريد أن تراه قوياً ، والذى يجب أن يقسو عليها قسوة تصهر أنوثتها وتسيلها . فهذه الرقة وهذه الرحمة وهذا الخنوع وهذه المسالمة التى يتقرب بها الفنان من محبوبته كلها من علامات الأنوثة — عندها — لا من علامات الرجولة وهى من مظاهر الضعف — فى نظرها — لا من مظاهر القوة ، وهى تبعث فى نفس المرأة الاستهانة بها والشك فى أمر صاحبها إذ لا تضمن المرأة أن يتخذها الفنان وسيلة من وسائل الاستدراج يسلطها على كل من تعجبه من النساء مادام الأمر لا يكلفه أكثر من كلمات رقيقة أو ألحان عذبة أو صور جميلة

والفنان متى وصل به الحال إلى هذا الموقف كان عليه أن يختار واحدة من ثلاث : فإما أن يخصص نفسه لفنه ، وإما أن يخصص نفسه لحبه ، وإما أن يتذبذب بين الفن والحب وهذا ما يفعله الفنانون الشاكون ، فليس يتاح لكل فنان أن يتسامى حتى على الحب فلا يذكره ولا يذكر المرأة إلا كما ذكرها المسيح

عزيز أحمد فهمى

علاقة ما بهذا المشروع الجليل ، فيخلعون على أصحابها حلل الفخار والشرف التى ارتداها رجال لهم شهرتهم وعظمتهم بين العالم ، بعد أن طواهم الثرى فى بطونه

فهذه الأكاذيب من النوع الذى يقول عنه (تنيسون) : الكذب الذى هو نصف حق ، شر من الكذب الصراح

فهم يقولون إن إيطاليا تعد فى المرتبة الثانية من الدول التى تمر فى قناة السويس . فمن أين جاءوا بالبيانات التى يستندون إليها فى هذا الزعم ؟ من الإحصاءات المبنية على ذلك الظرف الاستثنائى الذى دعاهم إلى نقل آلاف من جنودهم البسلاء مجهزين بالمدافع والطيارات والأسلحة المختلفة لمحاربة الحبشة العزلاء عام ١٩٣٦ — ١٩٣٧، وعلى هذه الطريقة فى الكذب تجرى سائر الدعاوى والمزاعم التى يطلعون بها على العالم

إن قناة السويس التى نشأت فكرتها منذ قدماء المصريين ، وفكر فيها نابليون بعد حملته على مصر ، تم مشروعها على يد رجل واحد هو المهندس الفرنسى فرديناند دى لسبس .

لقد كان الخطأ الذى حال بين نابليون وبين تنفيذ هذا المشروع هو خطأ المهندس لابير الذى رأى أن هناك فرقاً بين مستوى الماء فى البحرين يحول دون ذلك ، وقد أصلح هذا الخطأ بتأثير دى لسبس وحده ، إذ رفع مذكرة إلى محمد سعيد باشا حاكم مصر مؤرخة فى ١٥ من نوفبر سنة ١٨٥٤ ينفى فيها وجود الفارق المزعوم ، مستنداً إلى تقارير قدمت إليه من مهندسين من الإنجليز لهم خبرة عظيمة ومهارة فائقة فى هذه الشئون ، فقاموا بقياس مستوى البحرين وكان لهم الشرف العظيم فى نفى هذه الخرافة ، والتوكيد بأن لا فارق بين مستوى البحرين

ومما يدعو إلى الضحك أن ينسبوا تأسيس القناة إلى مهندس إيطالى يدعى (نجرللى)، فتأمل عمل الدعاية فى الانتفاع بهذا الاسم؟ مما لا شك فيه أن هناك شخصاً يحمل هـذا الاسم كان ضمن الذين يعملون فى هذا المشروع ، ولكنه من أوستريا لا من إيطاليا ، وقد كان يشغل وظيفة مهندس عموم السكك الحديدية بها ، فعين فى بعض الأعمال مع مهندس انجليزى يدعى استيفنش فنسبته الدعاية إلى إيطاليا لأن اسمه نجرللى لا أكثر ولا أقل . وقس على ذلك سائر الدعاوى والأكاذيب

إن قناة السويس لم تنتفع بإيطاليا فى حال من الأحوال ، ولكن إيطاليا هى التى انتفعت بها فى فتح الحبشة

هل فى استطاعة ألمانيا أن تحارب — عن لابر بلجيك

منذ سنتين — وإذا أردت التحديد ففى ١٢ مارس ١٩٣٧ كتبت مجلة ألمانيـة تقول : إن أهم العناصر التى سنحتاجها فى الحرب هو الذهب

وهذا القول يفسر مبدأ معترفاً به فى تاريخ الحروب بما فيها الحرب الأخيرة ، إذ وجدت ألمانيا نفسها عاجزة عن تموين جيشها لحاجتها إلى المال . ويتبين من هذا دقة الموقف الذى تقفه ألمانيا وإيطاليا الآن

مما لا شك فيه أن ألمانيا فى عجز عن إيجاد الذهب الضرورى لحاجتها ، والذهب هو القوة التى يمكن الحصول بوساطتها على المئونة ، وألمانيا فى حاجة إلى الشعير والسكر ، وفى حاجة إلى المعادن اللازمة لعمل الأسلحة وتجديدها

ومن المعلوم أن ألمانيا فى حاجة ملحة إلى الحديد والنحاس والألومنيوم والمغنسيوم والرصاص ، وهى فى حاجة فوق ذلك إلى البترول وهو الروح الأساسية للآلات والمصنوعات الحربية على وجه العموم

وهى تعتمد على عبقريتها الصناعية للحصول على هذه المواد ، حتى لا تعول على الدول الأخرى فى استيرادها ، تلك العبقرية التى تحول الخشب إلى قطن ، ولبن الأبقار إلى صوف

وعلى هذا النحو تصنع الملابس لجنود الجيش ، ويصنع البترول والمطاط ويصنعونه من الجير، والصابون ويصنع من الفحم، والزبدة وتصنع من الزيت ، وتعيش الأمة جميعها على هـذه المصنوعات . وهنا تحضرنا الفكاهة القديمة وهى عجز ألمانيا فى المادن ، وقلة ثقتها بإخلاص الحليفة؛ وتحت هذا التأثير ولاشك يتفكك محور رومه برلين

فإذا قامت الحرب فستكون ألمانيا عاجزة كل العجز عن إعداد المال الكافى إذ أنها ستشترى مئونتها ومعادنها من الخارج .

هذه هى الحقيقة التى لا جدال فيها . فقد أصبحت ألـمانيا تستورد ٢٠٪ من مواد الأطعمة من الخارج فضلاً عن الأجور المالية التى يتقاضاها الزارعون فيها . ونحن نرجع فى هذا الموضوع إلى ما قاله الكاتب الألمانى فرتز استرنبرج فى كتاب « قوة ألمانيا الحربية » . فقد أورد كثيراً من المعلومات والإحصاءات الهامة التى تدل على عجز ألمانيا عن التموين ، واضطرارها إلى زيادة نسبة الوارد إليها من مواد الأطعمة ، وتلجأ ألمانيا إلى طريقة المقايضة

فى كل ما تريد من الدول . فتقول : أعطنى بترولك وأنا أعطيك عقاقيرى. وكل هذه الوسائل الفتملة لا قيمة لها إبان الحرب. فإذا أطلقت رصاصة واحدة لا يمكن بعد ذلك أن يعطى : البترول أو الحديد أو النحاس أو الشمير نظير حبوب الصحة وآلات الموسيقى

نحن مسوقون فى تفكيرنا هذا وراء رائد التاريخ ، ونعتقد أن زعيم الانقلاب فى ألمانيا سيتراجع عن فكرة الحرب ، إذ أن مسئوليته كبيرة فى أمر هو حياة أو موت لأمته ، ونود لو يذكر لأجل الإنسانية والمدنية قول شكسبير :

« إن فى السماء والأرض أموراً غير التى تحلم بها فى فلسفتك يا هوريتيو ! »

القرد وحياة الإنسان — عن مقال للدكتور هوفمان

الدكتور منريت يعد من رجال الطب المشهورين ، وقد أجرى فى هذه الأيام تجربة نفسية لم يسبق لها مثيل .

فمنذ عشر سنوات عاد من سياحة له فى أواسط افريقيا ، يصطحب قرداً صغيراً من نوع الشمبانزى يبلغ من العمر سنتين

وقد بذل كل ما فى وسعه هو وزوجته وأولاده ، لإبراز هذا القرد الذى أسموه — فاتو — فى مظهر الإنسان العاقل بحيث ينسى منشأه الحيوانى ويعيش معيشة الآدميين — دون أن يعملوا أى عمل لتدريبه كالمعتاد . وهذا عمل بلا شك له أهمية عظيمة ، إذ أنه يجعل الحيوان الأعجم يحيا حياة الإنسان .

وكان أول مرة خرج فيها فاتو فى مجمع من الناس ، فى حفلة غداء أقيمت فى منزل منريت حديثاً دعا إليها لفيفاً من الأطباء والعلماء المختصين بدراسة نفسية الحيوان ورجال الأدب والصحافة. فدخل عليهم فاتو منتصب القامة يسير على ساقيه الخلفيتين كالإنسان. وأغلق الباب من ورائه فى خفة ولطف . ومر يحيى الضيوف ويصافحهم واحداً بعد واحد فى أدب ورقة، وصاحبه يقدمه إليهم كما يقدم الصديق العزيز ، ثم أخذ مكانه فى مؤخر المائدة ، وساهم فى الطعام معهم ، ولم يبد على تصرفاته أى مأخذ .

وكان الطعام الذى قدم إليه من نفس الطعام الذى تناوله المدعوون وهو حساء وسمك ولحم وخضراوات وحلوى وفاكهة . وكان فاتو يتناول الطبق من جاره ويملأه لنفسه بنفسه ويأكل بأدب ونظام . وكل ما لوحظ عليه فى تناول الطعام أنه يكثر من أكل الخضراوات والفاكهة ويتناول منها أكثر من غيرها . وكان يحتسى كأس النبيذ فيمسكها بيده فيرتشف منها الجرعة بعد الجرعة فى اعتدال وهدوء . فلما انتهى من الطعام قام فوضع ذراعه على كتف مدام منريت وأشار إلى زجاجة من نبيذ بردو عرفها لمجرد النظر إليها ، وكان يخاطبها باسم ماما فقدمت إليه شيئاً منها

وفى أثناء تناول القهوة دعاهم الدكتور للتدخين ، فقام فاتو دون أن يشير إليه أحد بذلك فقدم إليهم لفافات التبغ . ولم ينس أن يوقد لكل منهم لفافته ثم تناول لفافة فأوقدها وجلس يدخنها بلذة واستمتاع

وكان فاتو يرتدى قميصاً فسيحاً وسروالاً خفيفاً وينتعل حذاء من الخيش . وقد أعد له الدكتور حجرة خاصة تحتوى على منضدة وكرسى وسرير ومشجب وبها حمام خاص يستعمله بنفسه وهو يتنقل فى حجر المنزل بحرية تامة

وقد شرح الدكتور منريت طريقته فى تربية هذا الحيوان فقال : إنه لم يدربه على شىء كما يفعل أصحاب السرك ، وإنه ألف هذه الحياة من تلقاء نفسه ولم يعلمه أحد من الأسرة أى شىء .

وقال إن تربيته تختلف عن تربية الأطفال ، فقد تعلم من تلقاء نفسه كيف يفتح الباب أو يغلقه ، وكيف يفتح النور وكيف يستعمل الشوكة والملعقة والسكين عند تناول الطعام ، وهو ينطق كلمة « ماما » أحسن من أى كلمة أخرى وقد حفظها عن أطفاله . ومن رأى الدكتور منريت أن هذه الكلمة هى أول كلمة نطقها الإنسان بدليل وجودها فى جميع اللغات وينطقها القرد آليا بمجرد فتح الفم وإغلاقه مرتين


داود
عدس
وولده
يقدم
ابتداء من يوم
الخميس
أول يونيو
والايام التالية
فرصة عظيمة
للبيع
تنزيل هائل
فى جميع الاقسام



١ — مناوأة الخدر والنعاس

فى العدد السابق من الرسالة كتب الصديق الفنان الأستاذ زكى طليمات « تعليقاً وتذييلاً » لقصة الفتور فى الأدب المصرى فراجع بعض ما رآه الأستاذ توفيق الحكيم وبعض ما أذهب إليه فجاءت كتابته جياشة بالمعانى ؛ ولعل القراء وقفوا عند ما قال فيهم وتدبروه، قال : « فإذا كان النتاج الأدبى فى مصر لا يقابل من الجمهور بالحماس الواجب ، فلأن الفتور مفروض على كل شىء يجرى فى مصر ، ولأن عدم الاكتراث صفة — ويا للأسف — من صفات الأكثرية الغالبة من الجمهور المصرى ولا سيما فيما له علاقة بالأدب والفن » . غير إنى لا أرى كل هذا الرأى ، فالذى عندى ما كتبته فى هذا الباب من الرسالة لمددين مضيا ، ومجمله أن الجمهور المهذب من القراء يرغب عن أدب التسلية والإنشاء التعليمي ويقدر ما يستحق التقدير ؛ إلا أنه قليل

٢ — ديوان يظهر فى قلب الصيف

ستخرج مطبعة مصرية ديوان شعر بعد شهر وبعض شهر ، والديوان مهيأ للطبع منذ ثلاثة أشهر ، وإن أنت عجبت للأمر فقلت : كيف يخرج ديوان فى العهد الذى فيه يُقعد الحرُّ الناس ويصرفهم عن القراءة ويسيّرهم إلى الشواطئ والمصايف القريبة والنائية، فاعلم أن بهذا الديوان غنى عن جمهور القراء، إذ أن مؤلفه من أصحاب الحظوة العالية فى وزارة المعارف ، وحسبه ما تقتنيه الوزارة من النسخ .. قصة معروفة : إن المال الموقوف على تشجيع التأليف فى وزارة المعارف لمحبوس — إلا أقله — على إعانة رجالها وأصدقائهم !

٣ — فى النقد الأدبى

يُعنى الدكتور اسماعيل أحمد أدهم بكتابة فصول فى الأدب العربى الحديث . فأخرج مبحثاً فى الدكتور طه حسين بك وآخر فى الأستاذ توفيق الحكيم (فى مجلة الحديث الحلبية) وهو يواصل نشر مبحث فى الأستاذ خليل مطران فى مجلة المقتطف . ومزية كتابة الدكتور أدهم أنها منصرفة إلى النقد القائم على الوجهة الموضوعية لا الذاتية ، كما تقول اليوم . والحق أن النقد عندنا أكثره يجرى على الطريقة التأثرية . وهكذا ترى الدكتور أدهم يميل مع ناقدين أو ثلاثة من أهل مصر ولبنان إلى جمح التأثر Impressionnisme وتحديده ومراقبته حتى تتغلب المعرفة على الإحساس . إلا أنى أرى فيما يكتب الدكتور أدهم موضعين للنظر : الأول اعتماده على الآراء القَبلية a priori والمسلّمات والمقبولات. وترى ذلك فى الفصل الأول والثانى اللذين كتبهما فى خليل مطران، ومثل هذا الأسلوب أجنبى عن طريقة النقد الموضوعية ؛ لأن هذه الطريقة تذهب من الواقعات إلى النظر ومن الخاص إلى العام : فلا يتكلم الناقد مثلاً على لون من ألوان الشعر ليدل بعد ذلك على أن شاعراً من الشعراء ينظم على ذلك اللون ، بل يجرى على عكس ذلك . ومن هذا أيضاً أن الدكتور أدهم يقرر القضية من باب الارتجال فيستخلص منها ما يستخلص : من ذلك قوله فى مطران (المقتطف يونيو ١٩٣٩ ص ٨٧) : « وقد خلص الخليل من هذه السنين (سنين الطفولة) بطبيعته الاجتماعية التى تميل إلى خلق جملة صلة اجتماعية une somme de rapports sociaux مع الناس» . فإنى لا أفهم هذا النحو من التفكير «الموضوعى» وكأنى بالدكتور

أدهم اقتبس منى (انظر « مباحث عربية » ص ٧٦) هذا التعبير: « جلة صلة اجتماعية » مع ما ينظر إليه باللغة الفرنسية ، من دون أن يحسن استعماله فى مجرى حديثه ، على ما يبدو.

وأما الموضع الثانى فإهمال الدكتور أدهم لاستقصاء المصادر . من ذلك ما فاته من مراجع فن توفيق الحكيم . فقد كان يحسن به أن يلتفت إلى ما كتبته فى هذا الباب فى مجلة الشباب (٩ مارس سنة١٩٣٦) ومجمله: أن كلام توفيق الحكيم فى مسرحياته الأولى على أن « الكائنات ظواهر لا حقائق » ، وما يترتب على ذلك من صراع بين الواقع والحلم ، وبين الزمان والتاريخ ، وبين الشهوة والرغبة ، إنما هو أصلاً لكاتب مسرحى فرنسى يدعى لينورمان H.-R. Lenormand ،ومن تآليف هذا الرجل « إنما الزمان حلم » (سنة١٩١٩) و « آكل الأحلام » (سنة ١٩٢٢) و « الرجل وأشباحه » (سنة ١٩٢٤) . ثم إن فى قصص توفيق الحكيم مظهراً آخر مستمداً من الأول وبيانه: أن الإنسان يسيّره ما لا يعرفه وما لا يقدر على مقاومته. وهذا الرأى الآخر يرجع إلى كاتب بلجيكى يدعى موريس ميترلنك (وإلى إبسن Ibsen قبله) . بقى أن الأستاذ توفيق الحكيم ينحو نحو ميترلنك فى إنشاء ما يقال له فى فن المسرح « الجو » ، وجو القصة المسرحية قائم على بث الأنوار ، وتوزيع الأثاث وإجلاس الممثلين، إلى غير ذلك . وجو المسرحية عند الحكيم كجو المسرحية عند ميترلنك من حيث الميل إلى بسط الإبهام على الناظر وإثارة الأوهام فى نفس الناظر .

وليس معنى هذا أن توفيق الحكيم لم يأت بشىء من عنده . فقد كتبت قبل اليوم أنه « يحكم سرد الرواية ويحكم الحوار ويحكم تهيئة البيئة ؛ فهو صاحب فن حقاً » ، وقد استشهد الدكتور أدهم فيما كتبه بهذه الجملة (ص ٣٥٧)

وبعد ، فإنى أدعو من يعنى بالفصل الذى كتبه أدهم فى الحكيم ـ وهو فصل حقيق بالعناية ـ أن يرجع إلى نقد الأستاذ صديق شيبوب لذلك الفصل فى صحيفة البصير (١٢ مايو ١٩٣٩) ، فإنه جم الفائدة .

بشر فارس

الأتراك والحرف العربى

كنت نشرت فى الجزء (٢٢٦) من السنة الخامسة للرسالة الغراء — مقالة عنوانها (الحرف العربى والإفرنجى) نعيت فيها على هؤلاء الترك استبدالهم الذى هو أدنى بالذى هو خير ، وقلت فيها : « وأما ذلك التجديد فليس لليوم أن يقضى فيه قضاءه ، وللغد الحكم فننتظر أأحسن القوم أم أساءوا » وبينت أن الحرف الإفرنجى هو الحرف العربى نفسه ، وأصل الحرفين معلوم ، غير أن الزمن قد حسّن الثانى أى العربى وهذبه

وإن ما صنع الترك هو أنهم انقلبوا يسطرون أو يخربشون من الشمال مبذرين مضاعفين الكلمة ، وكانوا يكتبون من اليمين موفرين الوقت الثمين والكاغد

وقد قرأنا اليوم فى الصحف هذا الخبر من أنقرة :

« أنقرة — أخذت الأوساط التركية تفكر باستعمال الحروف العربية بعد أن قامت عدة صعوبات فى استعمال الحروف اللاتينية ، ويقال إن حكومة الجمهورية قد تفكر فى إلغاء القرار القاضى بمنع استعمال تلك الحروف »

فإذا صدق هذا الإعلام — ولا أستبعد صدقه — فقد عقل القوم من بعد السفه ، وصحوا من سكرهم ، وأحسنوا إلى أنفسهم وأدبهم وتأريخهم وآثارهم — على ضئولة قدرها — وإلا فإصرار المبطل على الضلالة والباطل لا يدل على أنه محق

الاسكندرية

* * *

على فراش الموت

أصدرت دار الهلال أخيراً كتاباً عنوانه «على فراش الموت» من تأليف الأستاذ طاهر الطناحى. وهو كتاب محكم الوضع طريف الموضوع مختلف الجنَى بين اللذة والفائدة والعبرة ، وقد أهداه إلى الأستاذ أمين الخولى فكتب إليه هذا الكتاب :

إلى الأديب الكبير الأستاذ طاهر الطناحى ...

تحية وسلام . وبعد فقد تلقيت كتابكم عن اللحظات الأخيرة

وأثر فيّ تناولكم الدقيق لتلك اللحظات من اليقظة التي تتكشف فيها النفس عن جوهرها السماوي ، وتستقبل الحياة الثانية بصفاء كدرته طوال تلك الحياة الدنيا أوهامها وأخاديعها

نظرت فيما دونت من حال العظماء في تلك الدقائق الرهيبة ، آخر عهدهم بالدنيا وأول عهدهم بالآخرة ، فتجسم لي قول من سلف : الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا . وشعرت أن من كمال الترجمة لعظماء العالم أن تعرض لنا حياتهم في تلك الأوقات الختامية ؛ وكأنما « فراش الموت » بساط ساحر لا ينتهي مداه ، فهل أقول لك : ابسط منه ما استطعت وحدث الناس في أجزاء أخرى عن تلك اللحظات على باب الأبدية ، وعتبة الحياة الثانية ، واكشف من نفوس المدودين ما لا ينكشف إلا في تلك البرهة الدقيقة الجليلة ؟

إن الموضوع رائع رهيب ؛ وقد بدت تلك الروعة والرهبة في تناوله . وفي لمحات قصيرة نظرت فيها إلى هذا المؤلف غمرتني تلك الروعة والرهبة ، وشعرت بما شعرت به حين كتبت فصلك عن « الحب والموت » على ما أظن ... مزيج من الخشية والتسامي إلى عوالم اللانهاية

أشكرك وأحييك ، وأبعث إليك مع سلامي أطيب تمنياتي

أمين الخولي

اصطلاح جديد

سيدي الأستاذ الزيات

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد فلقد قرأت مقال أستاذنا الفاضل أحمد أمين « أدب الروح وأدب المعدة » فألفيتُ مطلعه هكذا : « هذا اصطلاح جديد أضعه لنوعين من الأدب يتميزان كل التميز ، ويختلفان كل الاختلاف ، لعل في وضعه فائدة في تقويم الأدب وصحة تقديره » . وما بي من عزم على أن أعرض لما جاء في ثنايا الموضوع من آراء ، فأنا أحترم رأي الأستاذ وإن بَعُد ما بيني وبينه ، ولكني أريد أن أقول : إن هذا النوع من المقابلة ـ وهو طريف ـ لم يكن ابن الساعة ، فطالما سمعته يجري على لسان أستاذنا المرحوم الرافعي في صور ، وهو جرى على قلمه أيضاً في صور أخرى . ففي وحي القلم الجزء الأول ص ٨٤ س ١ جاء ما نصه : « ... لستُ المدبِّر بما في نفس أحمد ، ولا بمعدته وبطنه ... » وفي ص ١٣٥ س ١٢ من نفس الجزء جاء : « أفيؤَرِّخ الإنسانُ يومئذ بتاريخ معدته وما حولها ، أم بتاريخ نفسه وما فيها ؟ » وفي ص ٢١٢ س ٤ من الجزء الثاني جاء : « ... ويتعامل الناس في الشرف على أصول من المعدة لا من الروح ... » . ولو ذهبت أتقصى هذا التعبير فيما كتب الرافعي — رحمه الله — لكلفت نفسي شططاً ، وحسبي هذا برهاناً على ما رأيت ، والسلام

كامل محمود حبيب

كيفية ظهور الحياة على الأرض

سيدي رئيس تحرير الرسالة :

سلاماً وتحية . أما بعد فقد قرأت مقالة الأستاذ النقبادي في عدد الرسالة الأخير (٣٠٩) عن كيفية ظهور الحياة على الأرض . فوجدت فيها كثيراً من الخطأ أبين وجهه وصوابه فيما يلي :

فالأستاذ يبني كلامه على حقيقة لم يقل العلم فيها إلى الآن كلمة (الفصل) : فهو يقول إن الكائنات الحية خاضعة لنواميس الطبيعة . ولكن الواقع أن كثيراً من ظواهر الأحياء كالحركة والتفكير والغرائز — لا زالت تحير العلماء — ولما يجدوا لها تفسيراً مقبولاً . ولا زال علماء الحياة يعتبرون أن هناك قوة اسمها الحياة لا يدركون كنهها ، ولكنهم يرون أثرها .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن الأستاذ يستنتج من هذه الآراء نتائج غير صائبة . فيقول : إن السبب الطبيعي لنشوء الحياة هو حرارة الشمس ، والأشعة البنفسجية التي كانت تبعثها في فجر الحياة . فلو سلمنا أن حرارة الشمس كانت حينئذ أشد منها الآن بمراحل — كما يقول الأستاذ — فإن هذا يدحض رأيه . فالحرارة الشديدة لا تساعد على نشأة الحياة وازدهارها ، وإن كانت تساعد التفاعل الكيميائي . وذلك لأن البروتوبلازم (المادة الحية) يصاب بالضرر إذا اشتدت الحرارة كما هو معروف لكل من درس علم الأحياء ... والواقع أن الشمس لم تتغير كثيراً منذ نشأة

الكواكب السيارة ، ومنذ ظهور الحياة على الأرض . فإن ثلاثة الآلاف من ملايين السنين ليست إلا يوماً في حياة الشمس » : (النجوم في مسالكها تأليف السير جيمس جينز وترجمة الدكتور الكرداني)

ولو سلمنا برأى الأستاذ لتحتم أن توجد الحياة في بعض الكواكب السيارة الأخرى التي وقعت تحت نفس الظروف التي وقعت تحتها الأرض كالمريخ مثلاً . ولكن « يظهر أن احتمال وجود الحياة على المريخ أو على أى كوكب سيار آخر في المجموعة الشمسية لا يمكن أن يسمى احتمالاً قوياً » (النجوم في مسالكها السالف الذكر)

ويخبرنا علم الجيولوجيا أن الحياة لم تظهر غالباً إلا بعد مدة طويلة من نشوء الأرض . وأقدم الحفريات (وهى بقايا الكائنات الحية الموجودة ضمن الصخور) يقل عمرها عن نصف عمر الأرض ، أى إن الحياة لم تظهر غالباً إلا بعد انقضاء نصف الزمن الجيولوجي . وهذا يخالف ما يذهب إليه الأستاذ من أن الحياة نشأت حينما نشأت الأرض

وقصارى القول أن منشأ الحياة لا يقدر أحد أن يجزم بزمانه أو كيفيته . ولعل تقدم العلم – المبنى على التجارب والحساب لا على الخيال – ينير لنا هذه المسائل . والسلام

منير أمين مطى

توحيد المصطلحات الطبية في العربية

وافق مجلس الوزراء على مذكرة لوزارة الخارجية قالت فيها : إن الجمعية الطبية المصرية طرحت موضوع (توحيد المصطلحات الطبية في اللغة العربية) على مؤتمرها الأخير الذى عقدته في أوائل سنة ١٩٣٨ في بغداد فأصدر قراراً اقترح فيه مقترحاً فصلت الجمعية الطبية قواعده فيما يلى :

أن تتصل الحكومة المصرية بحكومات الأقطار العربية في الشرق الأدنى للاتفاق على ما يأتى بصفة رسمية :

أولاً : أن تؤلف كل منها في بلادها لجنة من الأطباء واللغويين للنظر في موضوع توحيد المصطلحات العربية للعلوم الطبية أى اختيار أفضل تلك المصطلحات للاستعمال ، ويراعى في اختيار هذه اللجان أن تمثل فيها الجمعيات الطبية المختلفة

ثانياً : أن تنتدب كل من تلك الحكومات من أعضاء اللجان المشار إليها عضوين للاشتراك في لجنة دائمة تجتمع بالقاهرة شهراً في كل سنة على نفقة تلك الحكومات لبحث المصطلحات العربية المقترحة بواسطة اللجان المشار إليها أو الواردة في المعاجم الطبية العربية والبحوث اللغوية الطبية في مختلف البلاد واختيار أصلحها للاستعمال

ثالثاً : أن تكون قرارات اللجنة الدائمة المشار إليها معترفاً بها للاتباع في جميع المعاهد التعليمية والطبية في الدول المشتركة بحيث تتوحد المصطلحات الطبية العربية في جميع معاهدها وبالتالى في جميع مؤلفاتها ومجلاتها وعلى ألسن أطبائها

رابعاً : أن يكون انعقاد اللجنة الدائمة في كلية الطب أو مجمع فؤاد الأول اللغوى بالقاهرة ، وتتولى الجمعية الطبية المصرية الإشراف على سكرتيرية اللجنة ، وتتحمل وزارة المعارف المصرية النفقات الخاصة بالسكرتيرية والمراسلات والمطبوعات التى تصدرها اللجنة

جائزة « أمبر ونجن »

تلقت قنصلية الأرجنتين في الأسكندرية من جمعية مكافحة السرطان الفرنسية أنها منحت الأستاذ الدكتور انجل روفو مدير معهد الأبحاث الطبية في (بونس إيرس) عاصمة الأرجنتين جائزة « أمبر ونجن » ومقدارها ١٠٠ ألف فرنك ، وذلك لتقديمه إلى الجمعية أفضل الأبحاث الطبية الدولية عن « تأثير الطعام في إنماء السرطان » وقد سلمت الجمعية قيمة الجائزة إلى الدكتور كركانو وزير الأرجنتين المفوض في فرنسا ، لإبلاغها إلى الفائز بها

وقد قرر الدكتور روفو الاكتفاء بالشهادة الممنوحة له من الجمعية ، أما الجائزة المالية فقد تبرع بها لحكومته لتنفقها في الأبحاث الطبية ، على أن ينتدب لهذا الغرض طبيب أرجنتيني يسافر إلى فرنسا لمدة سنة لإجراء أبحاثه هناك ، وطبيب آخر فرنسي يقدم إلى الأرجنتين لعمل مثل هذه الأبحاث

الشعبة المصرية لمعهد التعاون الفكرى

بين القرارات التى اتخذتها الشعبة المصرية لمعهد التعاون الفكرى ، تحديد قيمة الاشتراك السنوى الذى تدفعه مصر للمعهد وجعلها خمسمائة جنيه في العام

ودرست الشعبة مشروع مرسوم بتنظيم أعمالها ومشروع لائحتها الداخلية وبحثت مسألة اختيار أعضائها ، واستقر الرأى على أن يكون بعضهم ممثلاً لهيئات علمية وأن يختار البعض الآخر بصفتهم الشخصية

واقترح سكرتير الشعبة الأستاذ محمد العشماوى بك وكيل المعارف أن تمثل الشعبة في المؤتمر المزمع عقده في مصر لتوحيد الثقافة بين البلدان العربية ، فوافق المجتمعون على هذا الرأى على أن يمثل الشعبة في الأعمال التمهيدية للمؤتمر : الدكتور منصور



تاريخ التعليم في عصر محمد على

تأليف الأستاذ أحمد عزت عبد الكريم

للأستاذ على ابرهيم حسن

ألف حضرة الأستاذ أحمد عزت عبد الكريم مدرس التاريخ الحديث المساعد بكلية الآداب كتاباً عن « تاريخ التعليم فى عصر محمد على » . وقد درست هذا الكتاب أو بالحرى هذا المجلد الضخم الذى تزيد صفحاته على ثمانمائة صفحة فوجدته درساً دقيقاً وإحاطة شاملة وبحثاً مستفيضاً لتاريخ التعليم فى مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وهى الحقبة الهامة التى شاهدت تكوّن امبراطورية محمد على وتحوّل مصر إلى دولة عسكرية فتية آخذة بأسباب الحضارة الحديثة .

وقد نحا المؤلف نحو العلماء الباحثين فى بحثه ، فسرد الوقائع وأردفها برأيه الشخصى ، وعلق على الحوادث بآرائه التى تدل على الفطنة ودقة الحكم والتمييز . وقد استند المؤلف فى بحثه إلى مراجع كثيرة ما بين عربية وافرنجية وتركية . كما استند إلى وثائق ومخطوطات بقسم المحفوظات التاريخية بديوان جلالة الملك .

ولسنا نستطيع فى هذه المجالة أن نفيض فى الحديث عن كل فصول هذا الكتاب الضخم ، وحسب القارئ أن يرجع إلى الفهرس التحليلى الذى أورده المؤلف فى صدر كتابه .

فهمى بك مدير دار الكتب ، والأستاذ أحمد أمين رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

ووافق الأعضاء على تأليف مكتب مؤقت يضم سعادة لطفى السيد باشا رئيس الشعبة ، والدكتور على ابراهيم باشا وكيلها ومحمد العشماوى بك سكرتيرها العام ، والدكتور طه حسين بك والدكتور احمد عبد السلام الكردانى بك

وعرضت على اللجنة مذكرة مقدمة من الأستاذ محمد قاسم بك عميد دار العلوم ومندوب الحكومة المصرية فى المؤتمر الدولى الثامن للعلوم التاريخية الذى عقد فى أغسطس الماضى بمدينة زوريخ بسويسرا . وقد تضمنت المذكرة طائفة من المقترحات خاصة بوضع فهرس عام يجمع شتات المصادر المطبوعة للتاريخ المصرى ، ووضع قاموس للتراجم المصرية ، ووضع مصور تاريخى يبين أهم تطورات التاريخ المصرى إلى غير ذلك . وقد عهدت الشعبة إلى لجنة مؤلفة من مقدم المذكرة ، والأستاذ محمد شفيق غربال عميد كلية الآداب ومسيو دريوتون مدير مصلحة الآثار ، ومسيو فييت مدير الآثار العربية — درس هذه الاقتراحات

جمعية الفنانين المصريين

ستقام مباراة فى فن الخط العربى للفنانين المصريين والأجانب يدور موضوعها حول كتابة اسم الجمعية . وللمتسابق الحرية فى انتقاء نوع الخط وحجمه على أن يذيل النماذج بإمضائه واسمه وعنوانه ، ويرسلها إلى مقر الجمعية رقم ٦ شارع فؤاد الأول مصر ، فى موعد لا يتجاوز يوم ٢٧ يونيو عام ١٩٣٩

وقد تقرر لها جائزة مبلغ جنيه مصرى . وللمتسابق الحق فى أن يتقدم بأكثر من مخطوط

ع . روفائيل

قسم المؤلف فصول كتابه تقسيماً منطقياً إلى ستة كتب وثلاثة وعشرين فصلاً ، فتكلم أولاً عن التعليم قبل محمد على وهو التعليم الديني فى الأزهر والكتاتيب والتربية التى كان يأخذ بها الأمراء مماليكهم، والتأثير الفكرى الذى استحدثته الثورة الفرنسية فى الثقافة المصرية . وانتقل المؤلف من هذا إلى فصل ألم فيه إلماماً عاماً بسياسة محمد على فى التعليم فعرض لنا فصولاً شائقة فى جهود العاهل الكبير فى إنشاء المدارس وبث البعوث وترجمة الكتب ونشرها والأغراض التى كان يتوخاها من النهضة التعليمية . ثم عرض المؤلف مسائل هذه السياسة عرضاً تمهيدياً مبيناً ما بينها وبين وسائل التربية الفرنسية من شبه ومن خلاف ، والأثر الغربى فى النظام التعليمى الحديث فى مصر . ثم أخذ المؤلف فى شرح تطور هذا النظام التعليمى فى عصر محمد على ، فتحدث عن نشأة التعليم الحديث فى مصر من ١٨١١ إلى ١٨٣٣ ثم عن إنشاء شورى وديوان المدارس وقد حقق تاريخ إنشاء هذا الديوان واختصاصاته وكبار موظفيه تحقيقاً قال عنه أستاذنا شفيق غربال إنه « يصلح أن يكون مثالاً لكيفية استخراج الحقائق التاريخية من الوثائق الرسمية »

ثم انتقل المؤلف إلى حركة التعليم فى سنة ١٨٤١ والنهضة التعليمية التى جدت فى السنوات الأخيرة من عصر محمد على والتى كانت ترمى إلى تجديد الأساليب التعليمية وإلى نشر التعليم بين الأهالى . وفى الكتاب الثالث فصل المؤلف الكلام على معاهد الدراسة الابتدائية والتجهيزية والخصوصية ومناهج التعليم فى مراحله الثلاث وخططه، وأتى بإحصاءات دقيقة لهذه المعاهد وعدد تلاميذها وكتب الدراسة بها طوال عصر محمد على

وقد عنى المؤلف بالحديث عن البعوث العلمية فنقد نظامها وتحدث عن أوجه انتفاع البلاد بأعضائها ، ثم سرد إحصاءات طريفة عن البعوث المختلفة فى عصر محمد على . وقد خصص المؤلف فصولاً ممتعة فى الحياة المدرسية وكل ما تعلق بها . ثم أعاد بحث المسائل التى ابتدأ بها مستعيناً فى نقده بما أورده فى الكتب السابقة من التفصيل ، فتحدث — فى الكتاب الأخير — عن العلاقة بين التعليم القديم والتعليم الحديث ومدى تأثير كل منهما فى الآخر وعلاقة الدولة والمجتمع بكل من التعليمين . وفى الفصل الثانى من هذا الكتاب نقد المؤلف النظام التعليمى الحديث فى عصر محمد على مبيناً ما به من أوجه الضعف وأخصها إهمال التعليم الأولى وضعف الصلة بين مراحل التعليم والمركزية فى إدارة التعليم وضعف مناهج الدراسة . ثم انتقل المؤلف إلى بيان الصلة التى نشأت بين المدرسة المصرية والمجتمع المصرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر

ولم يختم المؤلف كتابه إلا بعد أن عقد فصلاً ختامياً تحدث فيه عن مدى نجاح النظام التعليمى الذى أنشأه محمد على فى مصر من حيث توجيه البلاد إلى التعليم الحديث واتصالها بالحضارة الأوربية وتوطيد زعامة مصر فى الشرق العربى ونهضة اللغة العربية.

وختم المؤلف كتابه بفصول إضافية فى تاريخ المعاهد الخارجة عن النظام القومى كمدارس الجاليات الأجنبية والطوائف الدينية غير الإسلامية ، وبصور عن بعض الوثائق الهامة كلوائح الدراسة وتقارير الامتحانات والتفتيش ، وبنقد للمراجع التى رجع إليها، وبيان مفصل لسجلات الوثائق الرسمية التى استمد منها مادة البحث وخاصة السجلات التركية والعربية لديوان المدارس فى عصر محمد على ، وفى نهاية الكتاب يرى القارئ « لوحات » طريفة لنماذج من الوثائق التركية والعربية والفرنسية يرجع عهدها إلى عصر محمد على ، قصد بها المؤلف — كما قال فى مقدمته — : « نقل بعض الوثائق ذات الأهمية التاريخية العظيمة وبيان أسلوب ذلك العصر فى تقييد أوامر الوالى ومكاتبات الدواوين وطريقة العمل فى الدفاتر التركية والعربية لديوان المدارس ، وتقييد نتائج الطلبة المبعوثين لطلب العلم فى فرنسا ». نذكر من بين هذه اللوحات – على سبيل المثال – الوثيقة الأصلية لأمر محمد على بإنشاء ديوان المدارس وأختام ديوان المدارس التى كانت تبصم بها قراراته وسجلاته ، ومضبطة أول جلسة عقدها شورى المدارس ، والجلسة التى أعلن فيها إنشاء الديوان ، وصورة التقرير الذى كتب بالفرنسية عن امتحان الخديو اسماعيل عند الالتحاق بمدرسة سان سير بفرنسا

فى أكتوبر سنة ١٨٤٨ وفيه بيان أسئلة الامتحان والدرجات التى نالها فى كل منها الخ ...

وقد صدر الكتاب بتقديم تاريخى نفيس فى أربع عشرة صفحة بقلم أستاذنا المؤرخ الجليل « محمد شفيق غربال » عميد كلية الآداب وأستاذ التاريخ الحديث بجامعة فؤاد الأول وصاحب الفضل فى تخريج عدد كبير من الشبان الباحثين فى التاريخ . تحدث أستاذنا فى مقدمته عن الوثائق التاريخية (وحق المؤرخ) فيها وجهود المغفور له الملك فؤاد – طيب الله ثراه – فى حفظها وتشجيع الباحثين على الاستفادة منها ، ثم تحدث عن اتجاه « المؤرخين الشبان » نحو دراسة « الإصلاح المحمدى العلوى » وذكر منهم مؤلف الكتاب الذى نتحدث عنه اليوم فأظهر النواحى التى أهلته للكتابة فى تاريخ التعليم فى مصر . ثم انتقل استاذنا العلامة إلى الحديث عن محمد على والتعليم فعرض لنا صورة بديعة « لمنظر الرجل الذى لم يتزود من تعليم المدارس يستحث رعيته على طلب العلم ، وينفق النفس والنفيس فى تهيئة وسائله لهم » ودرس خطة محمد على فى التعليم وأهميتها « لأهل الجيل الحاضر فى مواجهتنا مستقبل الثقافة فى مصر » .

و « التعليم » عند المؤلف يمثل ناحية هامة من نواحى النشاط السياسى والاجتماعى لمصر الحديثة . وعلى هذه الفكرة بنى المؤلف بحثه حتى جاء كتابه بحثاً تاريخياً بيداجوجياً يجد فيه المؤرخون بحوثاً واسعة فى تاريخ مصر فى القرن التاسع عشر ، كما يجد فيه رجال التربية والتعليم بحوثاً أخرى فى نظم التربية وتطورها فى مصر فى ذلك العصر ، ونظريات بيداجوجية عن تعليم الطفل والبالغ وعلاقة المدرسة بالمجتمع ومدى تأثير كل منهما فى الآخر . ولذلك فهو مجموعة لا غنى عنه لطلبة « التاريخ » بكلية الآداب ، وطلبة المعاهد والمدارس التى تدرس التربية كدار العلوم ومعهدى التربية للبنين والبنات ومدارس المعلمين والمعلمات والمهتمين بدراسة التاريخ السياسى والاجتماعى لمصر الحديثة والمشتغلين بالتربية والتعليم .

على ابراهيم حسن
مدرس التاريخ بالمدرسة الخديوية

{ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولى — عابدين }